ملكة الصحراء - الرياض

مهما بلغت معرفة المرء بالمحيط الطبيعي لعاصمة الصحراء الرياض، فإنه لايستطيع الاقتراب منها مرة ثانية بعد غيبة لفترة من الزمن إلا بشهقة من الدهشة. إنها تظل كامنة لاتراها العين حتى يدنو منها المرء مسورة ومدفونة في تيه تعصف فيه الريح من أرض جيرية متموجة لا شكل ولا خصائص، ممتدة شمالاً وشرقاً بلا تضاريس لنحو خمسين كيلومتراً. وفي وسط ذلك كله يجري وادي حنيفة بين ضفتين سحيقتين متعريتين ومتخفياً في رحم القفر المحيط به، وإن كان الوادي قريباً من طريقنا فإننا لم نتمكن من رؤيته طوال الطريق ولو للمحة. وكان أول ما وقع أمام ناظرنا المتعب بعد السير المغبر نحو ساعتين من الجبيلة كان نخيل الشمسية، وهي أشجار النخيل الواقعة في أقصى الطرف الشمالي من بساتين الرياض، التي ترى من نحو أربعة كيلومترات. وبعد قليل ظهر لنا منظر شامل كامل للجزء الشمالي من الواحة، بما في ذلك المدينة بأسوارها ذات الشرفات، عندما صعدنا مرتفعاً يسيراً.

كان هناك غطاء خفيف من الغبار معلق في الجو يعلو المنظر، الذي لم نتبين منه شيئاً لافتاً من ذلك البعد. لقد كانت الصحراء، لا المدينة، هي التي ملأت عقل الإنسان التي ترى عليها آثار الخطوط الطويلة الآتية من مختلف الاتجاهات والملتقية من آثار القوافل والوفود منذ قديم الزمان، وقد حرثت فيها وسائل المواصلات الحديثة مجاريها هنا وهناك، بعد أن جاءت لتبقى للتطور، وإن لم تقض بعد على الوسائل القديمة التي كانت مألوفة لدى أجداد العرب الحاليين. وكم من جماعة، مكونة في معظم الأحوال من نحو عشرة أشخاص على العدد نفسه، من الدواب أو ما يزيد عليه أو يقل عنه، كانت تشق تلك الصحراء

نحو الهدف نفسه الذي كنا نسعى إليه، في سرعة توحي بأنهم ينوون الوصول في صباح الغد، بينما كنا نحن نبدو وكأننا لن نصل قبل ساعة أو ساعتين من غروب الشمس. فأينما توقفنا، كانت الريح التي تتبعنا، ولا نشعر بها في سيرنا، تغطينا لفترة وجيزة تغطية كاملة بغبارها الأصفر الخفيف. وربما كنا على حق حين نغبط منافسينا الأبطأ منا، على مسافة منا يمنة ويسرة، وهم يتهادون في سيرهم بتؤدة بلا قلق أو غبار.

لقد كان علينا أن نسبقهم إلى غايتنا المشتركة، ولكنهم سرعان ما سيدخلون معنا في مظلة الكرم نفسها. لقد علمت أن آلافاً منهم - بلغني تقدير كلي بنحو ٨٠٠٠٠ شخص - كانوا قد جاءوا ومضوا قبلهم. بل وفي تلك اللحظة نفسها كان بقايا الضيوف - وقد زانوا الصحراء بألوان زاهية بخيامهم، البيضاء أو السوداء أو المخططة، وبنسائهم وأطفالهم وأغراضهم - يربون على ٤٠٠٠ أو ٥٠٠٠ شخص. فمنذ عودة الملك في تاريخ مبكر من يوليو فإنهم كانوا يتدفقون من كل أنحاء البلاد ليقدموا ولاءهم ولينالوا ما يستحقونه من هبات - جيش ضخم، مستعد في أي وقت، يتلقون أجورهم بالجود بمشيئة الملك، ولكنهم مع ذلك يكافأون على فترات منتظمة بقدومهم شخصياً. وبما أن المكافأة تكون حسب عدد أولئك الذين يأتون لتقديم ولاء الطاعة في الرياض، فإن شيخ كل قبيلة أو بطن -وبطبيعة الحال- يحضر معه من أبنائه وأبناء إخوانه وأقاربه كل من كان في سن يقدر معها على الركوب منفرداً على ذلوله ليقدم ولاء الطاعة للملك بنفسه شخصياً. إنه نظام قديم عظيم، وهو الآن في أيد أمينة تصرفه بذلك المزيج من الكرم والاقتصاد الذي لايعرف سره إلا ذلك الملك بالفطرة. إنه لشيء محير فعلاً، قال ابن سعود يوماً من تلك الأيام في حفل جمع كثيرين من شيوخ البدو في انتظار الإشارة ببدء العشاء، إن التصدق مضر كثيراً بالبدو،

كما هو ممارس الآن في العراق وشرق الأردن، بينما النظام المماثل له من دفع مكافآت منتظمة مقابل خدمات معلومة، كما هو الحال في نجد، يقتضي شيئاً مقابلاً لما يقبضه البدو.

وطيلة الشهر الماضي كانت البطحاء وأماكن الإقامة الأخرى حول العاصمة مكتظة بما فوق طاقتها برجال القبائل المخيمين من أركان الدنيا الأربعة. لقد خف الضغط كثيراً الآن، ولكن مدخل المدينة كان مكتظاً بمئات من الناس. ولقد تمكنت سياراتنا بعد زحف شديد وسط تلاصق بشري لا مثيل له أن تشق طريقها في الشارع الرئيس من بوابة الثميري إلى مدخل القصر.

وكما كنت قد تحسبت سماعه نوعاً ما، فإن الملك كان خارج المدينة في تلك الساعة (بعد صلاة العصر أو نحو الرابعة مساءً) ولا تنتظر عودته قبل ساعة أو نحو ذلك بعد الغروب. لقد كان في البديعة (الباطن)، وهو قصر بناه ابنه الأكبر، سعود، في بستان نخيل واسع كان قد اشتراه أو ورثه. فكان صعباً علينا أن نقرر ما نفعله في مثل تلك الظروف. وكان من البدهي استحالة ذهاب مجموعتنا الكبيرة كلها إلى الباطن لزيارة الملك. ولما علمت من بعض الحرس في البوابة أن الجناح نفسه الذي كنت قد أقمت فيه في أول السنة قد خصص لي هذه المرة أيضاً، فإني قررت ترك أمتعتنا في تلك الغرف، وانطلقت ومعي جابر إلى الباطن. وتخلف كردي ليحرس الأمتعة، بينما تعهد الطبيشي بالقيام بكل الترتيبات لاستقبال بقية مجموعتنا ورعايتهم حين يصلون. ورافقنا، أنا وجابر، رشيد الهويدة وابن عمرو في بحثنا عن إبراهيم بن جميعة لأخذ موافقته على هذا الإجراء. وصادف أن كان جملان، محملان بحطب الوقود، سائرين في الشارع الجانبي نفسه في الوقت ذاته. وكما فعلت الجمال أيضاً،

فإننا بدأنا بذل مجهود مضن لم يثمر عن شيء سوى اعتراض سبيل بعضنا البعض. وفي نهاية الأمر ترك الجملان حمليهما متناثرين في الشارع، ليكونا عائقين لتقدمنا، وفرا في شبكة من الأزقة يستحيل فيها اللحاق بهما. وبحث ابن عمرو عن إبراهيم، وعاد منه بخبر مفاده ضرورة ذهابنا للملك؛ وفي دقائق قليلة، وبعد تركنا أمتعتنا في القصر، تجاوزنا بوابة الثميري في الوقت المناسب في طريقنا إلى الباطن - وهي مسافة تسعة كيلومترات وربع الكيلومتر، في طريق طيب وإن لم يكن رائعاً، يقع في الصفراء، ذات التربة الجيرية، شمال حوض الرياض، وشرق وادي حنيفة.

وكان الملك آنذاك جالساً بجوار النافذة ذات الشباك الخشبي، من غرفة الجلوس الواسعة، في الطابق العلوي من قصر سعود الصيفي، فرآنا بينما كنا نهبط ذلك الطريق شديد الوعورة إلى بطن الوادي كثير الرمل الذي كان علينا عبوره قبل وصول الباب. وبالرغم من تحذيرات ابن عمرو لنا بأن معظم السيارات تسلك طريقاً أطول، وأقل وعورة، إلى جهة اليسار لتجنب أسوأ بقعة في الرمل، الذي كان قد راح ضحيته كثيرون، فإني وجهت سيارة الفورد الصغيرة نحو الطريق المباشرة، فاستجابت بشجاعة وبنجاح تام. وفي لمحة كنا لدى الباب، وفي الطابق العلوي حيث حييت الملك بما هو واجب، وهو القبلة التقليدية على الجبهة، ثم سلمت على البقية الذين كانوا قد اجتمعوا إليه بعد الغداء.

لاشك أن جلالته كان أحسن حالاً بعد غيابه شهراً عن مكة، حيث كانت الأحوال الجوية والاقتصادية قبل سفره قد أكسبته حالة من الحدة والاكتئاب. وبوصوله للجو الروحي والطبيعي الصافي في نجد، انقشعت سحائب التشاؤم

التي كانت قد تجمعت وتراكمت بصورة واضحة في الشهور الأخيرة في مكة. ولشيء واحد، فإن نقل البلاط من الحجاز إلى نجد خفض نفقاته بما لايقل عن ٦٠ أو ٧٠ بالمئة. ولقد بدا لي في خلال تلك الأيام القليلة أن نجداً كانت بمنأى تماماً عن الهبوط الاقتصادي الذي كان قد شمل العالم كله في تلك الأيام الصعبة. وعلى أي حال، ولأسباب بعضها عضوية، وبعضها الآخر نفسية، فإن الملك أصبح في صحة جيدة مرة أخرى، وإن لم يكن هو نفسه مسلماً بشعوره باللياقة أبداً. لقد ركن مؤخراً، وبدرجة كبيرة، لحياة الاستقرار في القصر، متنقلاً فقط بين عمله وأسرته وعمله مرة أخرى. بل إنه، وفي البديعة نفسها، بوسطها الرائع، أصبح يرضى بالبقاء داخل القصر بدلاً من الاستمتاع بجمال الحديقة وجوها المنعش. لقد بدأ الآن يعزف عزوفاً شديداً عن الطبيعة، ولكنه كان قد قضى في الصحارى قدراً من حياته السابقة مما وفر له مخزوناً طيباً من العلم بالطبيعة - وإن لم يكن ذلك يقارن بمعرفة خصمه السابق بها، المغفور له الملك حسين. وكذلك لم تكن لديه أية رغبة في التريض بأية صورة من الصور. إن الحياة التي قضاها، خلال نحو ثلاثين سنة من النجاح المنتظم، تحقق بمجهود رائع من عزيمة وطاقة، تغيرت فجأة لحياة رتيبة منتظمة من تاريخ حافل في ذروته.

الملك عبدالعزيز مع السيربيرسي كوكس
في العقير في ١٩٢٠م

ولي العهد (الأمير سعود) مع عمه وابن عمه

وزراء الملك للدولة : من اليسار إلى اليمين : خالد الحكيم ، رشدي ملحس ، الدكتور محمود حمودة ، يوسف ياسين ، خالد الهود ، عبدالوهاب النايب

الأمير فيصل، نائب الملك في الحجاز، الابن الثاني للملك

لقاء في الهواء الطلق، في قرية حجازية

موظفو حكومة المملكة العربية السعودية

الملك يدعو ربه

الملك يؤدي عرضة الحرب

الملك مع أبنائه الصغار

ثلاثة أجيال لعائلة قرشية في مرتفعات الطائف

امرأة صلبية لدى آبار الدويد الصحراوية

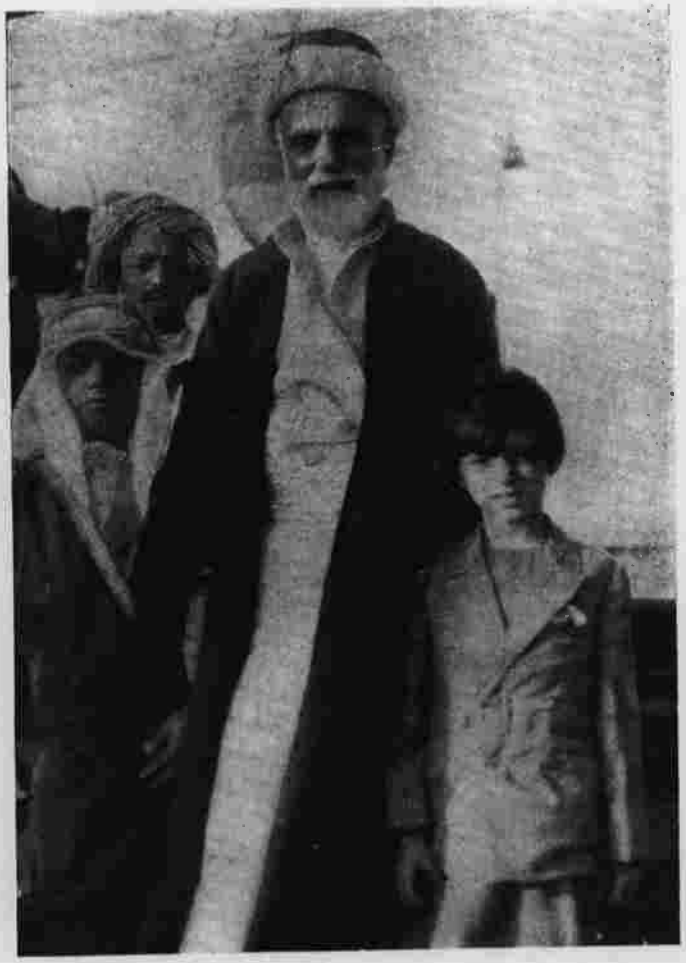

الحاج عبدالله علي رضا، حاكم جدة، في عهود ثلاثة
ملوك مع ابنه الأصغر وابنته

دار الجمارك في جدة

أطفال جدة

المؤلف في الطائف

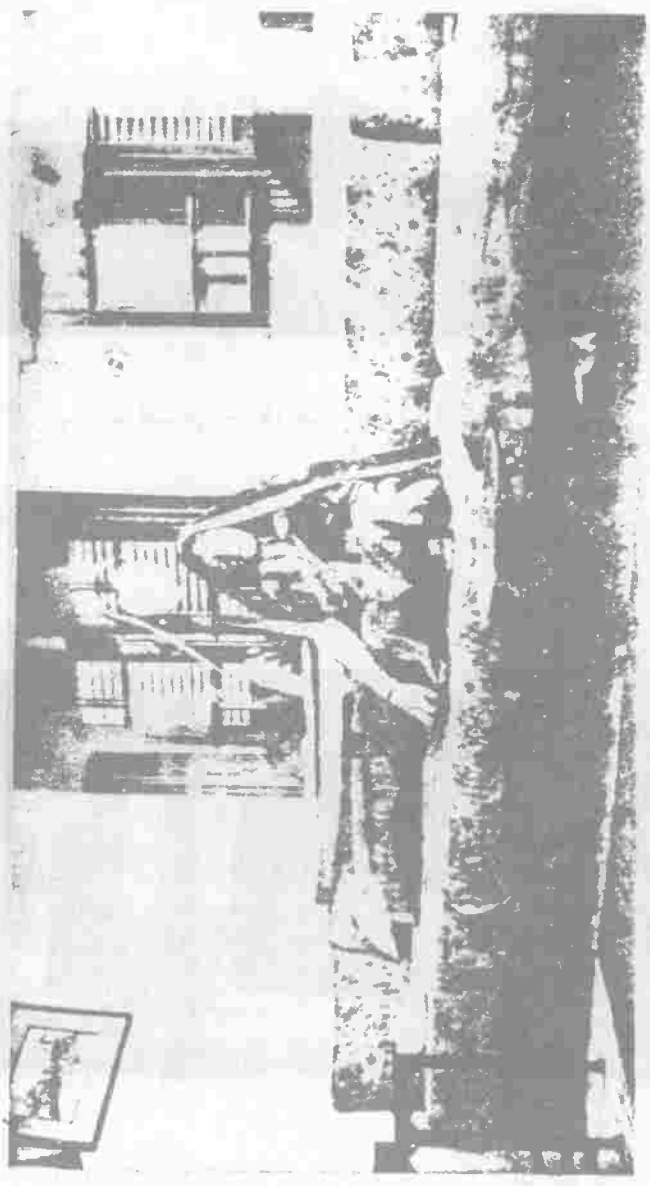

زوجة المؤلف في ثياب عربية

بيت المؤلف في جدة؛ قبر حواء في الخلف إلى اليسار

داخل بيت المؤلف في جدة: فناء مكشوف بأعمدة في
الدور الأرضي

منظر عام لجدة

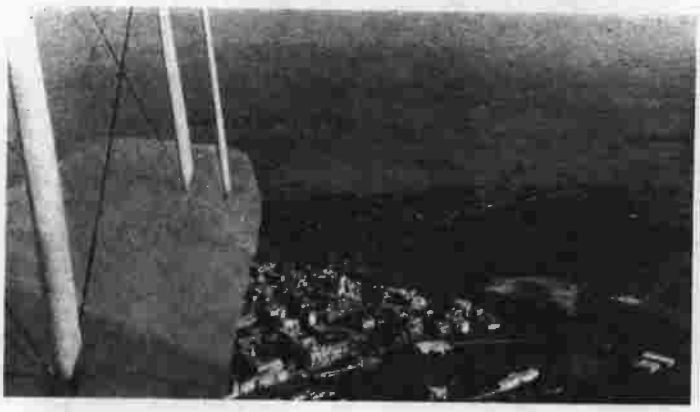

جدة من الجو

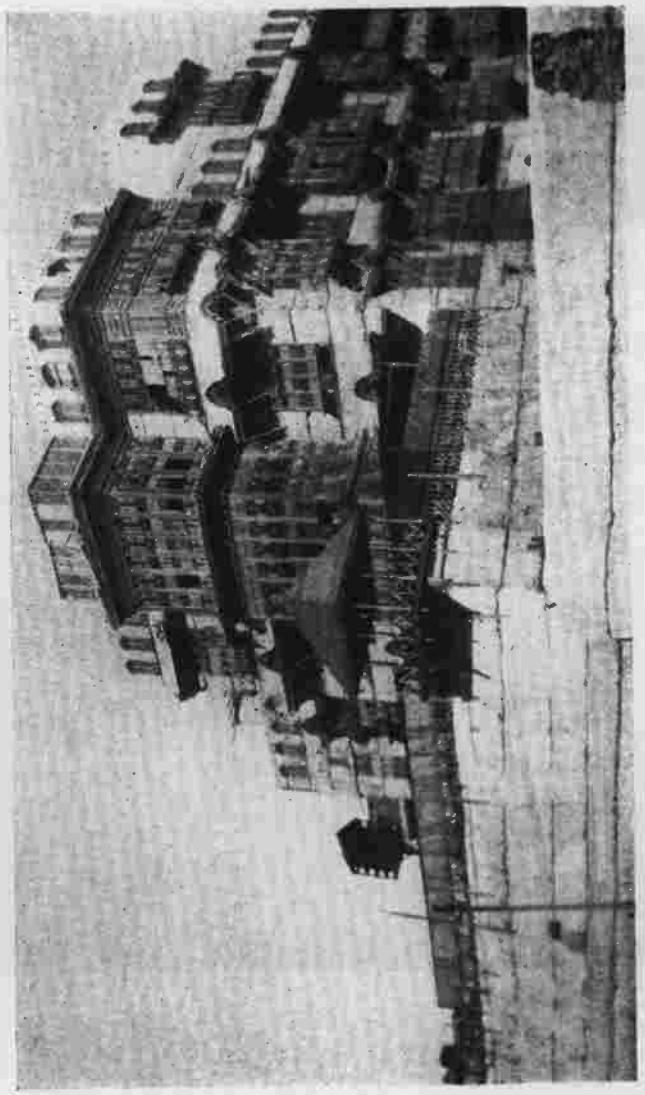

عمارة نموذجية لبيت في جدة

شارع في جدة

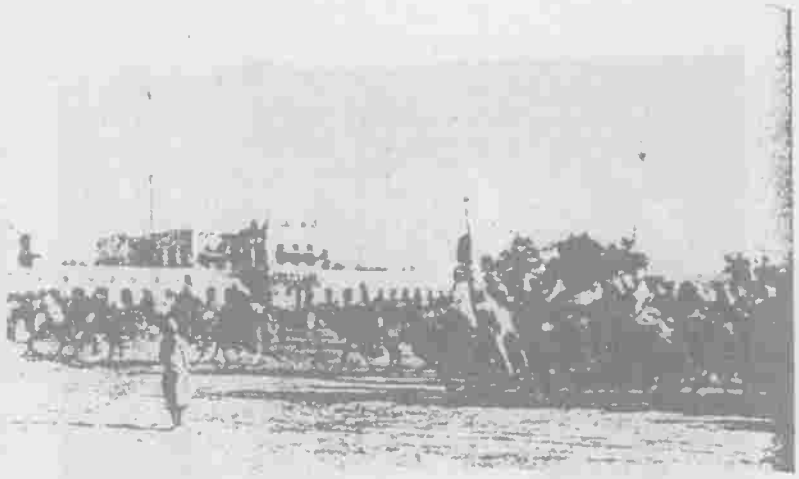

عرض لسلاح الفرسان وسلاح الهجانة أمام الثكنات في جدة

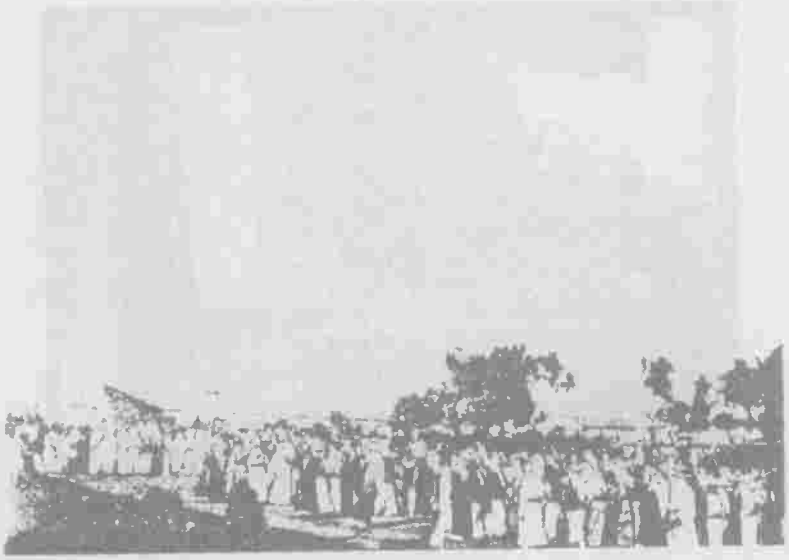

عرض لسلاح المشاة السعودي في جدة

قافلة تغادر جدة بحجاج في الهوادج

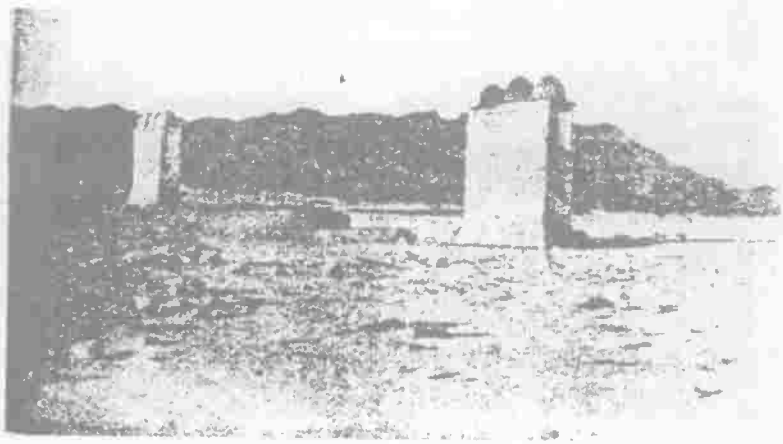

أعمدة حدود منطقة الحرم في مكة

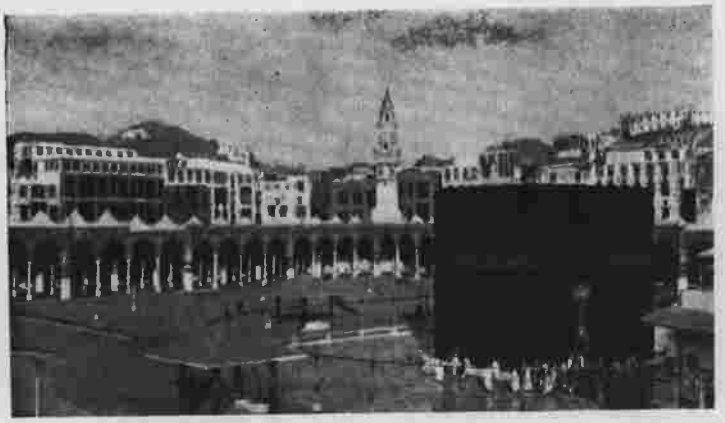

(١)

(٢)
المسجد الحرام في مكة المكرمة ١-٢

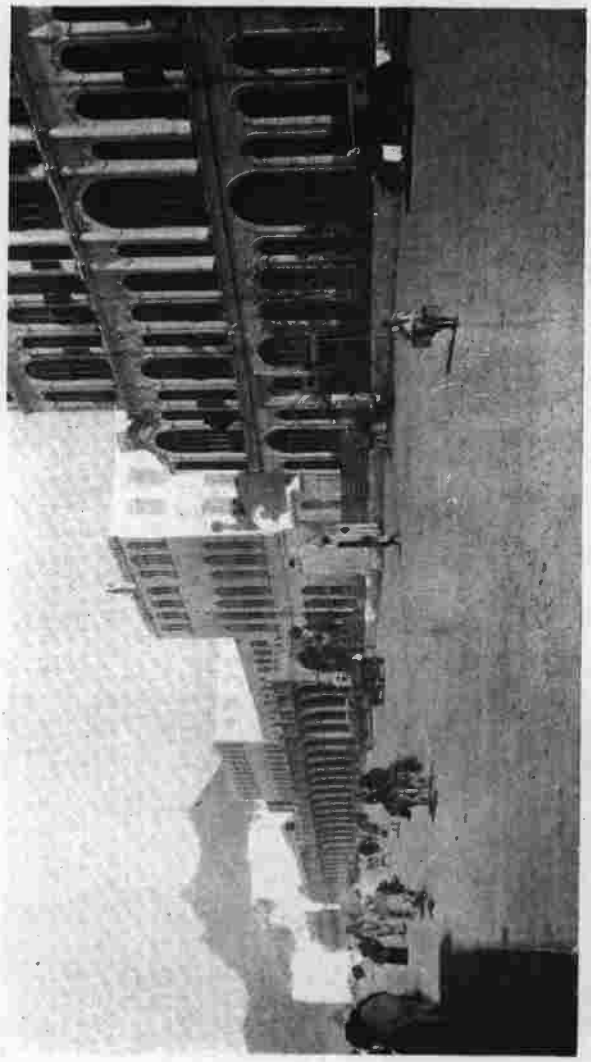

القصر الملكي في مكة

قصر الملك في منى أثناء الحج

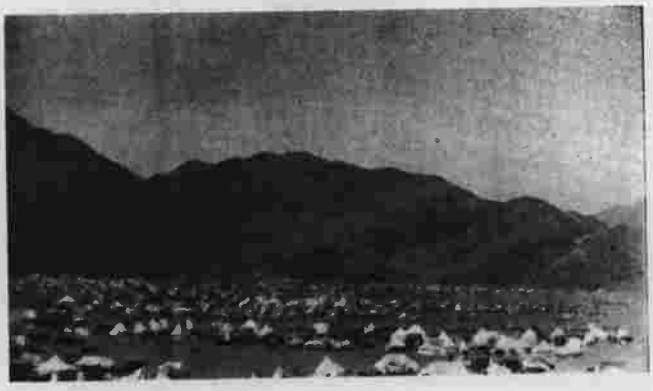

مخيم الحجاج في منى

الحجاج يصلون سهل عرفات

جبل الرحمة- عرفات أثناء الحج

المرجم أو العقبة الكبرى ومجرى الكبش في منى

الأغنام تهبط من الجبل ليوم الأضحى

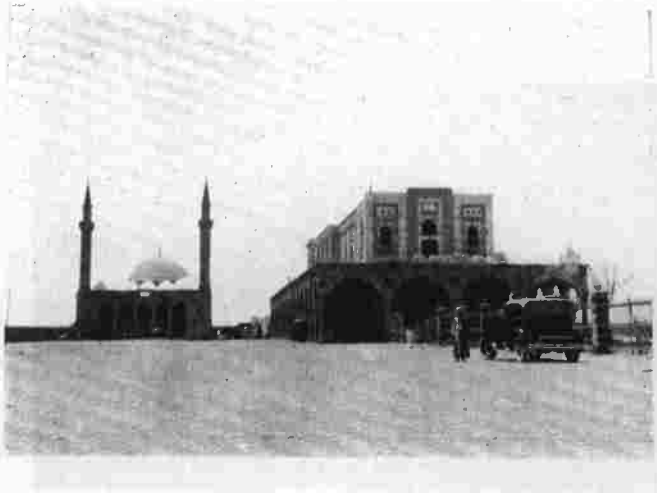

محطة سكة الحجاز في المدينة

الشارع المؤدي من محطة المدينة نحو المسجد النبوي

المناخة، مخيم الحجاج في المدينة

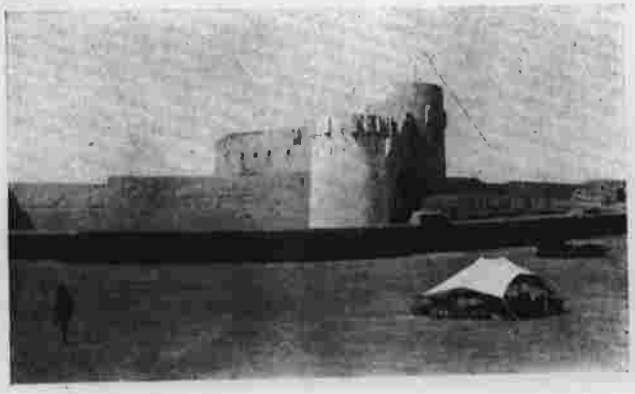

قصر السعيدي: حصن المدينة الرئيس

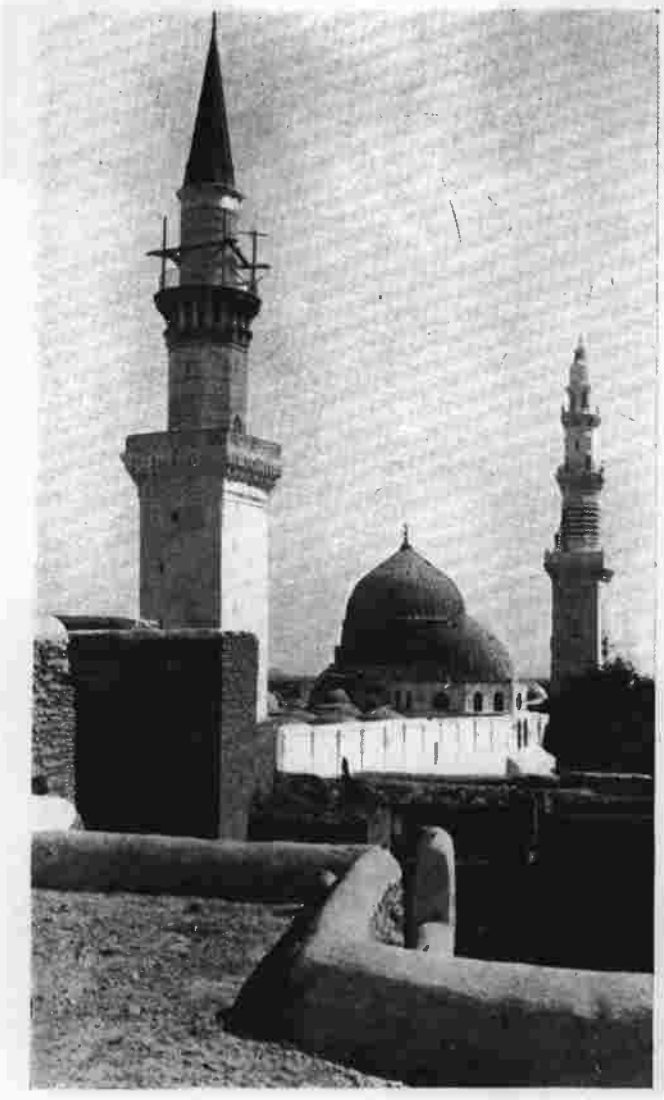

قبر الرسول ﷺ في المسجد النبوي

شارع مؤدٍّ للمسجد النبوي

المسجد النبوي في المدينة

مخيم مهد الذهب بين المدينة ومكة

القصر ومحطة الوقود بالدوادمي على طريق السيارات من مكة إلى الرياض

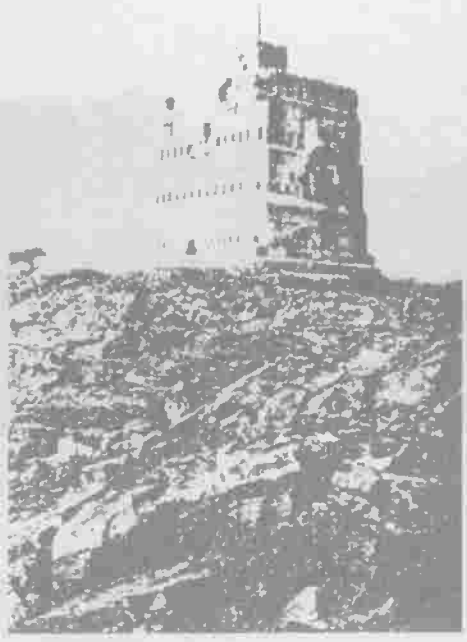

مخفر على الطريق من المدينة إلى قباء

مسجد قباء

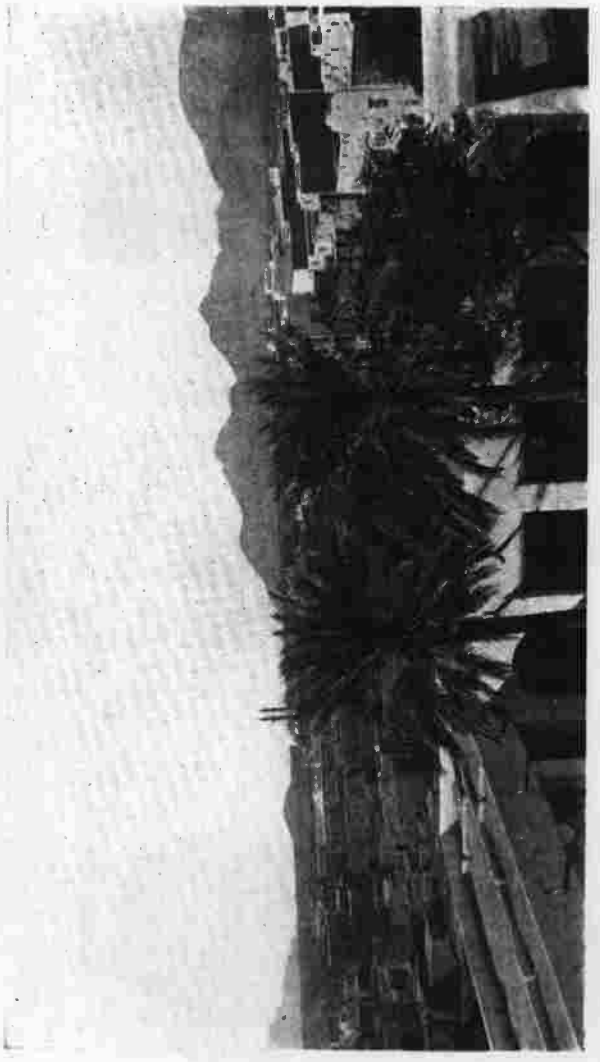

منظر عام للمدينة متجه غرباً

بحيرة مخيسة الإرتوازية في الخرج

بركة عين سمحة الإرتوازية في الخرج

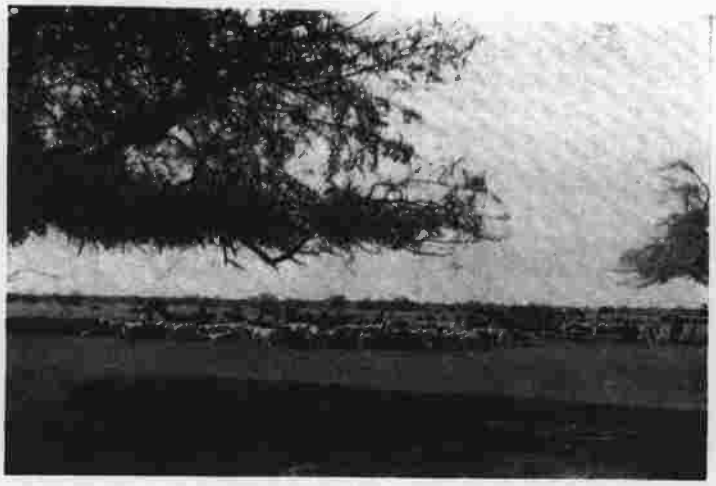

بئر المحدثة في الصحراء شرق مكة

خيول من مربط الخيول الملكية في الخرج جنوب الرياض

مدينة الرياض

بستان نخيل في واحة الرياض

سيارات توحلت في الصحراء الغارقة بالمياه قرب الرياض

نهر في الصحراء بعد أمطار غزيرة

سانية في بساتين النخيل بالرياض

مقبرة العود بالرياض

صلاة الجمعة في الجامع الكبير بالطائف

مدينة الطائف

قصر الملك الصيفي في الباطن قرب الرياض

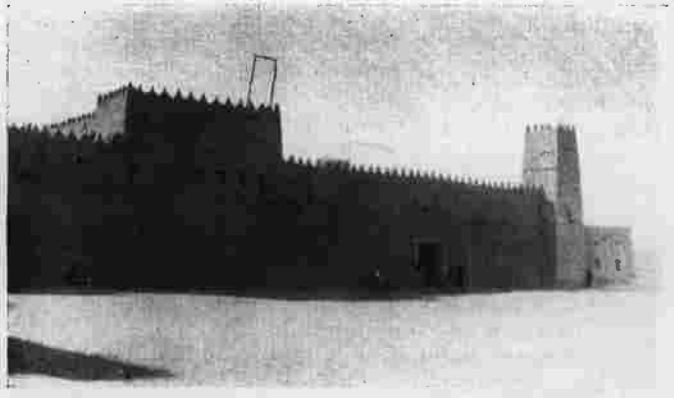

قصر أكبر إخوة الملك الأمير محمد بن عبدالرحمن
في الرياض

حصن الطائف

تكديس أخشاب العرعر في مرتفعات الطائف لسوق مكة

المسجد الجامع بالرياض

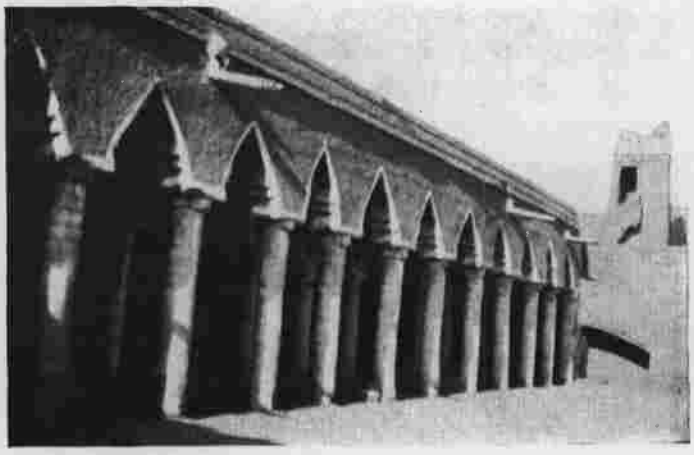

مسجد آخر بالرياض

جبل قرنيت (٨٠٠٠ قدم) قرب الطائف

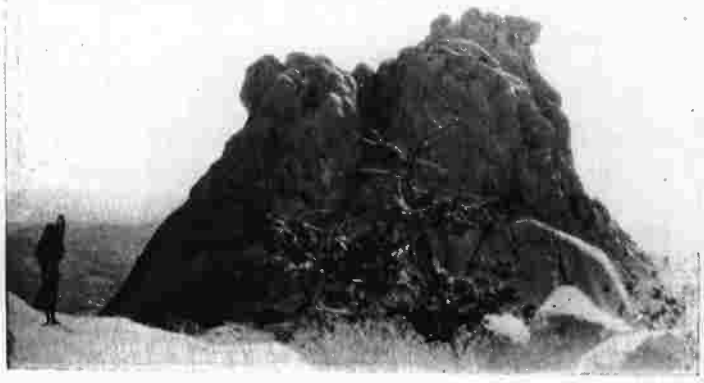

الذروة الفعلية لقرنيت

قصر الملك بالطائف (قصر شبرا)

مطار الطائف

مرتفعات الطائف، يبدو قرنيت في وسط الخلفية

قرية الدلم في هضبة قارا

قرية جبلية قرب الطائف

سيل الطائف (وادي وج) وقت الفيضان

قرية جبلية (نخب) قرب الطائف

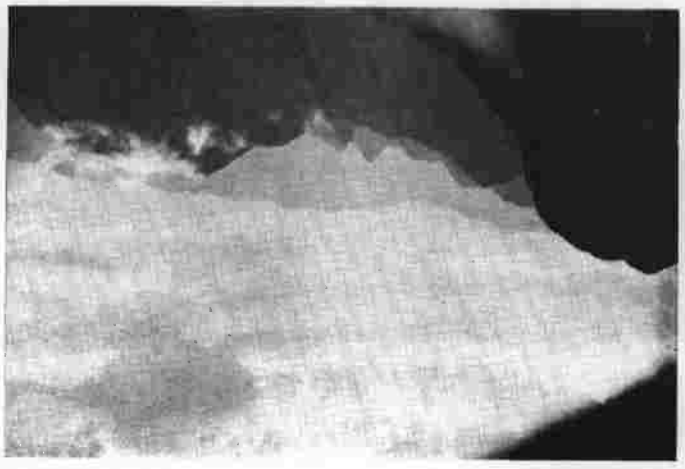

جبال الحجاز، كما ترى من قرنيت

حاجز جبال الحجاز كما يرى من الأراضي المنخفضة

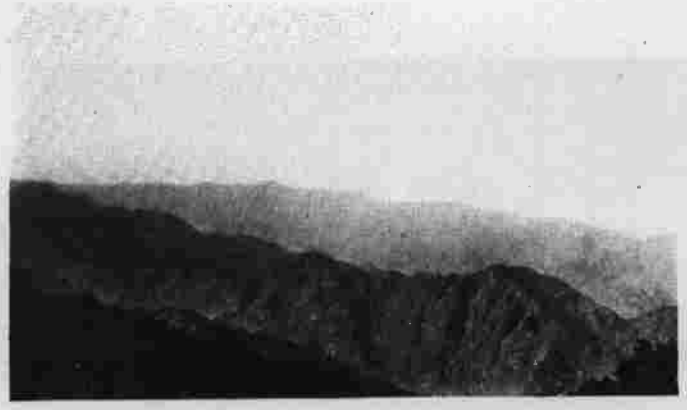

(نتوءات) دعائم جبال الحجاز

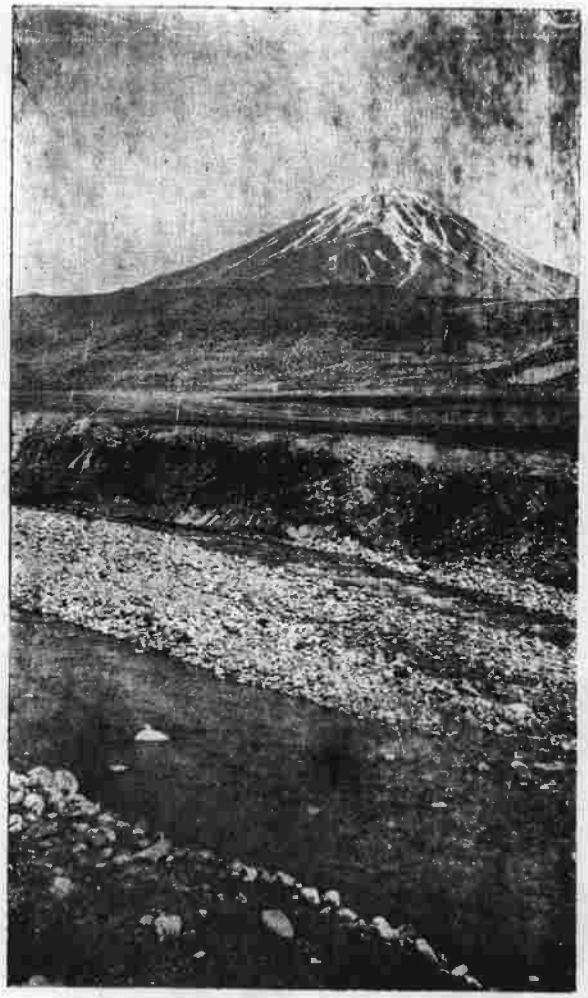

جبل دموند (أكثر من ١٨٠٠٠ قدم فوق سطح البحر) في
شمال فارس

طريق ممهد في قمة ممر قارا

الاقتراب من قمة ممر قارا بين مكة والطائف

لم يزل ابن سعود هو رجل الجزيرة العربية البارز؛ ولا يزال يعد الرجل الذي لا غنى عنه لتقدمها في نظام الحكم الجديد. ولكنه لم يعد هو الوحيد الكافي للمهمة العظيمة بين يديه. لقد كان مؤخراً يسعى لإنجاز ما فوق طاقته، فأدى ذلك إلى نتيجة حتمية هي شعوره بضيق مزمن لا يظهر دائماً، ولكنه تحت السطح تظهره أية مسة طائشة. ففي أيام مصاعبه الأولى والأشد حين كان كل شيء في خطر بما في ذلك الحياة نفسها، كان (وكما لا أزال أذكره في فترة ما بين ذلك) بشوشاً، متفائلاً، واثقاً، مغامراً وديمقراطياً. أما الآن، بعد أن استقر هانئاً على شجرة المجد البشري، وليس هناك ما يخسره، أصبح متمسكاً برأيه، قليل الكلام غير منطلق (إلا في الأحايين التي يترك فيها نفسه على سجيتها، كسابق عهدها، في المجتمعات البدوية، في الحديث عن الحرب وتجاربه المتعددة). وبالرغم من ذلك، وبعد أخذ حساب كل شيء، فإن هذا الرجل، وقد حباه الله بسلطة مطلقة في عهده، يشعر بها ويدركها، لم تأت أو تحدث صدفة، وإنما هي نتيجة جهود شخصية مضنية، لم يفقد شيئاً من إنسانيته، وهو ما يثير العجب.

وفوق ذلك كله، فإنه نموذج راق للمروءة العربية التي كانت في العصور القديمة. فالمرأة، والخيل، والجمال، واللبن، والتمر، وغارات الصحراء، والحرب - تلك كانت الخلفية الأساسية لسيرته حتى زجت به حماقة حسين وظهور القومية العربية في ساحة السياسة والدبلوماسية العالمية والإمبريالية. لقد بدا مرهقاً وهو في بداية الخمسين من عمره. لقد حقق ما كان يمكن تحقيقه، إنه في الظروف الحالية لم يضطرب أبداً منذ البداية، ولكنه صار ضجراً، وذلك

لافتقاره لرجال، يقدرون على تحقيق إرادته، ويشرحون له بكل أمانة وشجاعة حقائق الأوضاع الجديدة، الغريبة. لذا، وهو في عمره المتقدم، فإن العبء الذي كان يحمله كان فوق طاقته. فلم يعد مرحاً كعادته. لقد بذل كل ما في وسعه، فهو الآن في الحادية والخمسين، ولم يبق خارج ملكه سوى اليمن من كل الجزيرة العربية (باستثناء مناطق الانتداب والحماية). فإن كان ذلك كل ما في وسعه، فإن أولئك الذين كانوا يحلمون بجزيرة عربية عظمى، متحدة ومزدهرة تحت حكم عربي واحد، عليهم توريث أحلامهم تلك لنسل لم يولد بعد، ورثة أجيال ودنيا متغيرة جداً.

لم يعد هناك أحد يشك في أنه من بين كل المرشحين لسيادة الجزيرة العربية وقت الحرب أن ابن سعود وحده كانت له المزايا الضرورية لذلك. ومن أدرك ذلك من أولئك الناس آنذاك فإنه فرض عليه واجباً ومصيراً لا يقدر عليهما أحد إلا شخص خارق للعادة. ولكنهم لم يفطنوا لعامل واحد، لم يكن وارداً في الخاطر آنذاك - موقف القوى الأوربية من قيام دولة عربية قوية عظمى من أشلاء الحرب. إننا نعرف الآن أن بريطانيا وفرنسا لم تريدا قطعاً أن تريا الجزيرة العربية حرة، موحدة، مستقلة؛ ولقد عرفنا أن ابن سعود كان سيضيع وقته في مقاومة غير مجدية للانتدابات والحمايات. إن موقف القوى الأوربية قد يكون عقبة مميتة لتوحيد الجزيرة العربية في زمننا الحاضر. وما كنا إلا لنشعر بأن معظم المعاناة الحقيقية لابن سعود هذه الأيام - حالات حدته وضيقه - كانت معاناة الأسد الذي أحس بالسياج المحيط بالحديقة التي خصصت لسيادته. فالضغط الاقتصادي، الناتج عن الصرف الإداري المسرف أيام الوفرة، والحاجة الفعلية

للأموال أديا دوريهما في ما يحس به الملك مؤخراً. لكن المشكلة الفعلية كانت الحاجز الخفي الذي سبب له المصاعب. فلو أن مهمته كانت قد أنجزت لكانت سبباً لأسى فعلي (لحساده)، ولكن نقاده كانوا سيصيبون حين يشيرون إلى عجزه البين في وقت الأزمة الاقتصادية. إن الذين يطمحون في أن يكونوا قوى عظمى في العالم، بطبيعة الحال، عليهم أن يظهروا قدرتهم على لعب اللعبة - وعلى المرء أن يعترف آسفاً أن العراق وفلسطين آنذاك (وعلى سبيل المثال) كانتا ستصدهما التجربة الحالية في الحجاز عن المطالبة بالحكم السعودي كبديل لنظام الانتداب الحالي أو بأية بدائل محلية أخرى عنه.

كانت مغادرة الملك مكة المكرمة في نهاية شهر يونية تتسم كعادة جلالته بالتهيئة والاستعداد من فك وتركيب وتجهيز للمياه والطعام وغيره. وكما كان يحلو لجلالته أن يقول: إن التحرك ذاته كان اقتصاداً. إن نصف نفقته اليومية في الرياض كانت ستكون ولو في غيابه - نفقة بيوته، رواتب الموظفين والخدم، والصرف على بيت الضيافة - بينما هنا يمكن التوفير بقيود صارمة على استخدام السيارات. ويبدو أن نحو عشر سيارات فقط كانت في الخدمة الدائمة، بينما كانت نحو عشر أخرى، أو أكثر، مخصصة للسفر إلى الحجاز، أو الأحساء، أو الأماكن الأخرى. كما كان عدد أكبر من ذلك مخزوناً لحاجة قد تعن في المستقبل، وإن لم يكن واضحاً أنها كانت معتنى بها أو في أمان من سرقة بعض قطعها الصغيرة.

لا يستطيع أحد ما أن ينكر أن عودة البلاط بكل ما فيه إلى نجد كان تحسناً كبيراً عن الحال في مكة لو أنه سيظل كذلك بصفة دائمة، وأن تصبح زيارات الملك إلى مكة مقصورة على الحد الأدنى الضروري أو ما يشابه ذلك.

وبالإضافة إلى الجانب الاقتصادي في التغيير، وبما أن الاتصال اللاسلكي بين الرياض وجدة (منذ ١٩ أغسطس ١٩٣١م) قد اكتمل وأصبح عاملاً، فإن الإدارة العامة لم يعد لها شيء تخسره، بل كانت هناك كل الفائدة من تحكم الملك فيها من بُعْد، فلا يعطي اهتماماً زائداً على الحاجة لكل صغيرة وكبيرة.

وكما سبق ذكره، فإني حين وصلت الباطن، وجدت الملك مستمتعاً بالجو غير الرسمي في قصر البديعة وسط أعداد غفيرة من أعضاء الأسرة المالكة، والبدو، وآخرين من أصحابه العاديين. وكان حاضراً من البدو نافع بن فضلية من حرب (الذي كان قد لحق بالملك من القصيم بعد عودته إلى الرياض مباشرة) ومطلق بن زيد من مطير الدوشان (كان متمرداً قبل عام بقليل ولكنه الآن تابع لا ينفصل عن مليكه). وفي مناسبة أخرى من هذه المناسبات انتبهت لغياب مطلق. وكان -وكما علمت- قد انطلق في الصحراء بقوة من راكبي الجمال من معسكر الملك في مهمة لا يعرف أحد تفاصيلها. وتهامس الناس بأنه قد مضى بحثاً عن فتاة يتزوجها - استعداد للغوص في أية مغامرة زواج جديدة. ولكن، في هذه الحالة، أحسبه قد سافر في مهمة مغايرة. ومما يثير الغموض فعلاً أنه اتجه نحو الحدود العراقية، بحثاً عن ذلك النوع من المتاعب الذي يناسب مثله من الناس، في حنين دائم لأية فرصة لاشتباك يتخلل ذلك الركود في فترة السلام الذي غطى البلاد. وفوق كل شيء، فإن مطلقاً من أولئك المتشددين في الجزيرة العربية، الذين لن ينسوا تلك الأيام غير البعيدة حين كانوا ينطلقون ليضربوا ضربة في سبيل الدين، ولو كان الثمن هو الموت. وأما محمد بن سحمي القحطاني، ذو العين البراقة، فقد كان ثالث الثلاثة، وبعد ذلك بأيام قليلة قدم مذكر الحشري (من قحطان)، لعله جاء ليعلن قرب

قدوم فيصل ؛ لقد لفت نظري عدد آخر من البدو المهمين في تلك الأيام، منهم ماجد بن خثيلة، شيخ قبيلة عتيبة، بلحيته السوداء التي تكاد تخفي ابتسامة خفيفة دائمة شديدة السحر. لقد كان مسئولاً مسئولية خاصة عن كل إبل الملك، ذا خبرة تامة بكل مصايد الغزلان والحبارى في كل المواسم. لقد كان فيصل بن حشر (الذي توفي منذ فترة وخلفه في مشيخته لفرعه من قحطان ابنه، خالد. وهو شاب على وجهه آثار من الجدري) هو عميد الجماعة - معين لا ينضب لقصص المغامرات في الصحراء في الأيام الخوالي. لقد عودته الحياة الشاقة مع طاقة عالية خارقة على تحمل العطش - بل إنه، وفي الظروف العادية، لايكاد يقرب الماء. لم يكن يكره أن يأخذ فنجالاً من القهوة من حين لآخر، ولكن اللبن والتمر كانا غذاءه الرئيس، مع اللحم، بطبيعة الحال، متى ما تيسر. يقال عنه إنه قتل ما يربو على مئة رجل في المعارك، ومنافسه الوحيد في هذا الاتجاه معاصره فيصل بن دويش - وهو الآن مسجون لخروجه على الملك، فقضي عليه بالموت في حبسه بعد عام أو عامين.

ومن القوم المتحضرين من حاشية جلالته، بل أهمهم بلا منازع كان يوسف ياسين، السكرتير الخاص الأول للملك، ورفيقه المخلص. وهو شاب من اللاذقية، ذو مظهر لافت للنظر وسرعة بديهة. إن كفاءته وإخلاصه لسيده لاشك فيهما ؛ ولكن الأمر خاضع للنظر وذلك إن لم يكن قد أضعف شخصيته بالقدر الذي لايؤهله لأن يكون رجل دولة، وذلك حين يقتضي الأمر مناقشة الملك أو يكون في الأحاديث العامة التي تؤدي دوراً مهمّاً في الإدارة. فالملك -ولاشك في ذلك- كان إداريّاً صعباً، على المرء ملاطفته، وبخاصة

أمام الناس، ومن حين لآخر. ولكن نجاح الحكومة السعودية أو فشلها في المستقبل كان يشارك فيه أناس مثل يوسف ياسين والشيخ عبد الله السليمان (وزير المالية)، وفي كليهما لايخفى على المرء تبين ميل مفرط فيه للاتفاق مع كل كلمات الحكمة الصادرة من الشفتين الملكيتين. لكن الاختلاف بين الاثنين ربما كان في أن الشيخ ياسين، وإن كان يحاول -إن اقتضى الأمر- بذل كل ما في وسعه لإقناع سيده، بخطأ ما في تنفيذ شيء ما كان قد أمر به، فإنه ينفذ جزئياً وبإخلاص الأوامر التي يتلقاها ؛ أما عبد الله السليمان، المغامر بالفطرة، وبكل ما له من حاسية المغامر وتوتره، فإنه كان في استعداد تام ليوافق على كل ما قاله ابن سعود، ولينفذ، وعلى مسئوليته الشخصية، خلاف ذلك، أملاً منه في أن يقبل نجاحه كمقابل لطاعته. لقد كان الخوف يملؤهما - وم الخوف ؟ الخوف على وظيفتيهما [1]. على أنهما قد افتقرا للمعنى الجوهري لعظمة الإنسان. ولئن كان التاريخ سيذكرهما أبداً، فإنه سيذكرهما بما يستحقانه من منزلة. على أن الخوف في نظر الملك، منبع الأداء الجيد، فلا أحد يؤدي وظيفته أداءً جيداً إلا خوفاً من عواقب المعصية وعدم الكفاءة. قال محمد بن شلهوب، أمين الخزانة في الرياض، يوماً للملك: "والله ! أخافك أكثر مما أخاف الله". أجاب ابن سعود: "قلت الصدق، لأنك حقيقة لا تخاف الله".

إن الخوف من الملك ليس إلا امتداداً طبيعياً للخوف من الله الذي هو أساس الإسلا ؛ وفي الوقت نفسه، فإن فلسفتهم الفطرية لا تميز بين كون الله غنيًا عن

(١) هذه مبالغة من المؤلف، والواقع أن هذين الرجلين خدما الملك عبدالعزيز بكل إخلاص واحترام للملك كغيرهما من الموظفين الرسميين في الدولة. (المراجعون).

عباده وليس في حاجة إليهم وأنه أحق بأن يخافه المخالف لإرادته، وبين عدم صحة ذلك في حالة الملوك، الذين كثيراً ما يحتاجون للنصيحة من غيرهم.

إن يوسف ياسين، في توليه خدمة الملك بعيداً عن مكة، أصبح كما لو كانت حكومة الحجاز ونجد وما يتبعها جنيناً في الرحم. وكان لسان الملك في كل المراسلات التي تعود إلى الطائف ومكة. وإلى جانبه كان هناك عدد من الموظفين الأصغر منه سناً، كتبة وسكرتارية وناسخين، ولم يكن هناك أحد ما يقاربه مستوى أو أهمية. ولم يؤد الطبيب الخاص للملك، الدكتور مدحت شيخ الأرض، ومساعده، أحمد ياسين (المسئول عن مستشفى الرياض)، أي دور سياسي أبداً، وإن كانا يحضران المجالس الخاصة بحرية تامة. وإلى جانبهما، كان آنذاك رجل طرابلسي، متوسط العمر، كفء وذكي ومن أسرة طيبة، اسمه خالد القرقني، كان مقيماً في الرياض، ضيفاً مثلي. إن دم الحكام السابقين لإسبانيا (بني هود) يجري في دمه. وكان قد صرف معظم حياته وماله يحارب الاحتلال الإيطالي لوطنه (الذي اكتمل الآن باحتلال الأجانب في ظروف أدت إلى احتجاجات شديدة وقوية في كل أنحاء العالم الإسلامي). وفي وقت ما في عام ١٩٣٠م تولى منصباً رسمياً كأحد مساعدي نائب الملك في الحجاز. ولكنه لم يكن راضياً بلجامه الرسمي، الذي لم يجلب له الدخل الكافي لإعاشة عائلة كبيرة اشتهرت ببناتها الجميلات، اللائي أصبحت إحداهن زوجة لعبد الرحمن عزام، تاجر الأراضي المشهور في مصر. وبعد حين استقال من منصبه ليشارك الشركة الألمانية دي هاس وشركاه في جدة، وفي صيف ١٩٣١م، حين توقف العمل التجاري تماماً، قرر مرافقة الملك إلى نجد،

ويبدو أنه يؤدي بعض المهام الاستشارية. ثم رافق المهندس الأمريكي ك. س. تويتشل في بعثة للقيام بمسح تقريبي وسريع لإمكانات البلد المعدنية. ولكنه هو أيضاً، ولسوء الحظ، تعامل مع الملك بقدر مفرط من دبلوماسية البلاط، مما أضاع عليه فرصة أداء دور مهم ومؤثر في شؤون وطنه بالتبني.

إن هذا المسح السريع لدائرة البلاط في الرياض في تلك الأيام ترك في نفسي شعوراً بأن الملك، الذي كان عملاقاً، هو أبرز شخصية في الحكومة السعودية التي لا يوجد فيها شخص عنده من العزيمة والقدرة ما يؤهله لتقديم خدمات محسوسة للقضية العربية. فكلهم معتمدون على ابن سعود للقيام بالمعجزة المطلوبة (وهي بالإجماع العام توحيد العرب في حكومة واحدة)، ويجمع العرب في كل مكان بأنه إن لم يقدر عليها فإنه لا أحد غيره سيقدر عليها، ولا شيء يهم بعد ذلك. ولم يحدث لي أبداً أن شعرت باكتئاب عن مستقبل الجزيرة العربية كالذي شعرت به خلال تلك الشهور القليلة بعد رجوعي من الحج. لقد حدث كل شيء فجأة مع مجيء الأزمة الاقتصادية في البلاد، نحو نهاية موسم الحج. فحتى ذلك الحين، كان هو ذلك التفاؤل الصامت والأمل المبني على أضعف الأسس، الذي أبقى الناس أحياء ومتيقظين.

لقد انتهت رحلات الصيد العديدة التي كانت تحدث في برد التيه في بنبان والسلي ليحل محلها روتين حمل من خمود الصيف. ورجعنا، بطبيعة الحال، إلى الالتزام الصارم بصلاة الجماعة. فبعد الساعة الثالثة صباحاً بقليل، وعند ظهور أضعف شيء مما يشابه الضوء في الأفق الشرقي، نوقظ لوضوء مستعجل واندفاع إلى المصلى الخاص للملك، الذي يقع فوق المسجد الصغير في مباني

القصر. وهذا المصلى من قسمين، قسم مسقوف ومغلق للشتاء، وآخر مكشوف للسماء للصيف. فهنا، إن جاء المرء مبكراً، صلى ركعتي السنة، وانتظر وصول الملك، فعند ظهوره يندفع أحد رجال الحاشية إلى النافذة المطلة داخل المسجد ويصيح: "أقم". بعد ذلك تصلى ركعتا صلاة الفجر، وبعدها يأتي التسبيح بالمسبحة. ولا تلي صلاة الفجر أية صلاة سنة بعد ذلك، ولعل ذلك لئلا ترد الصلاة قبيل طلوع الشمس الناس إلى طريق الوثنية. وبعد الصلاة يعود كل واحد (أو كل واحد بلا استثناء) للنوم. وفيما يتعلق بي فإني أبقى بالسطح حتى الساعة السادسة صباحاً، حين تكون الشمس قد ارتفعت بالقدر الذي يزعجني. وبعد ذلك بقليل، نحو الساعة السابعة صباحاً أو السابعة والنصف صباحاً، يستقبل الملك الناس، وفيما يبدو في أربع غرف منفصلة، واحدة بعد الأخرى. يتم الاستقبال الأول في مكتبه نفسه، وهي الغرفة التي تعارفت فيها معه ومع والده لأول مرة في ١٩١٧م، وذلك لتصريف الأمور مع كتبته وسكرتاريه وللقاء الزوار الخاصين. بعد ذلك ينتقل إلى المجلس المجاور لها. وهو غرفة واسعة، يقوم سقفها على ستة أعمدة، مبطن بقماش، حيث كان الزوار جالسين. وعادة ما يستغرق هذا الاستقبال وقتاً قصيراً. فإن كان هناك من يستحق مقابلة خاصة، فإنها تكون في الغرفة المجاورة، وهي مجاورة لمكتب يوسف ياسين نفسه، حيث يكون الاستقبال الأخير والأخص. وهناك يأتي سعود، ولي العهد، وغيره من أعضاء الأسرة المالكة، وآخرون مثل خالد، الطبيب الخاص للملك، وشخصي وأي أشخاص آخرين منحوا شرف "الدخول الخاص".

وحين ينتهي عمل اليوم نحو الساعة العاشرة صباحاً، أو بعد ذلك بقليل، يعود الملك لقصر البديعة وحديقته، حيث الجناح المفضل لأهل بيته. وهناك يبقى لبقية يومه لنحو السابعة مساءً، حين يعود للرياض بالسيارة، للمبيت فيها مع إحدى زوجاته. إني لم أقل " الجناح المفضل " بلا مبرر. فالملك نفسه كثيراً ما يصف أهل منصور (أي أم منصور) بأنها القسم الأهم والأساسي في داره، القسم الذي يعيش فيه بصفة دائمة ويتناول فيه كل وجباته. وأبناء هذا القسم من البيت كانوا منصور، وبندر، ومشعل، وطلال (رضيع عمره سنة واحدة، عوض عن أخ شقيق بالاسم نفسه، كان قد مات في الطائف قبل عام)؛ والأم (أم منصور) اسمها شهيدة [1]، كان لها حظ وافر من حب الملك لما يزيد على عشر سنوات. كما كانت هناك ثانية هي أم بندر، وثالثة، أم طلال. ولكن من هؤلاء، كانت شهيدة هي الأثيرة عنده. وكان لكل واحدة من زوجاته الأخريات (وكلهن عربيات المولد) جناحها الخاص في الرياض بينما ازدادت مساكن الملك العائلية بسكنى أكبر بناته غير المتزوجات الأثيرة عنده، العنود، أخت محمد وخالد، وابنة زوجته الجميلة الجوهرة، التي لم يشغل فؤاد زوجها بعد وفاتها في ١٩١٩م سوى شهيدة، ولم يكن ذلك إلا بعد سنوات طويلة. وعرف عن العنود أنها كانت فارعة الطول، سريعة البديهة. وقدر لها بعد ذلك أن تتزوج ابن عمها الوسيم سعود بن سعد، الأقل منها طولاً. فكان هو آنذاك في الثامنة عشرة، وربما كانت هي في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرها في الأكثر.

(١) توفيت في ١٩٣٨م. (المؤلف).

بعد صلاة العصر نحو الساعة الثالثة أو الرابعة، كنت ويوسف والآخرون نذهب بالسيارة إلى الباطن لننضم إلى مجموعة الملك. وبعد نصف ساعة يقدم الغداء، ويقضى بقية العصر في الجلوس والتآنس، عادة في أشياء غير مهمة، أو الخروج للتنزه لفترات قصيرة في بساتين النخيل أو في أرجاء الوادي، بينما يخلد الملك إلى الراحة مع أهله. وبعد ذلك تحين صلاة المغرب، ومزيد من الأنس حول صحون تمر اللون أو البسر، ثم الذهاب إلى المدينة في سيارة الملك الهدسون، وعادة ما نكون نحو أحد عشر شخصاً داخل السيارة وفوقها، وأحيانا تسعة أو عشرة - وهذا أمر غير مريح، ذلك لأن من يركب منا في صندوق السيارة -والملك راكب فيها- يكون جالساً مما يسفر عنه آلام مبرحة من الخدر فيما بعد. وعلى أي حال، فإن الملك كان يعترض دائماً على عدم ركوبنا معه في المقعد الخلفي ذي الوسائد المريحة. إن المسلم غير ملزم بتحمل مشقة يمكنه تلافيها، ولا حاجة له فيها. اسع إلى اليسر ما أمكن وتجنب فقط تعمد ارتكاب المحرم. ولا تفكر في عمل ذلك تعللاً بالذرائع.

وحال وصولنا القصر، يذهب الملك إلى غرفه الخاصة، بينما نذهب نحن إلى السطح الذي خصص لنا لاستخدامه في الليل. ونحو الساعة الثامنة مساءً نهبط إلى مصلى الملك الخاص لنصلي معه العشاء، وهو تسليمتان كاملتان[1]، تسبقهما تسليمة واحدة سنة، وتليهما تسليمة أخرى، بعدهما نتجمع في فناء ليس بالفسيح في الدور نفسه لنصف ساعة من القراءة في الحديث والتفسير يقوم بها قارئ الملك، وهو شاب له صوت جميل رتيب، لكنه عموماً كان ذا

(١) يقصد المؤلف أربع ركعات بتسليمة واحدة. (المراجعون).

تأثير قوي، تغلب على كل جهودي لمتابعة القراءة بالتفصيل. تكون المجموعة لهذه القراءة غير كبيرة عادة، جالسة على كنبات خشبية عالية، منجدة بخيوط قديمة وغير نظيفة من القطن. وتمر القهوة في فترات، ويختم الملك كل جزء من القراءة بقوله: " بارك الله فيك ". وبعد انتهاء القراءة بقليل ينهض الملك، وينفضّ المجلس. وأحياناً يصرف الملك المجلس، ويظل جالساً يصرف أي عمل له مع يوسف ياسين، أو الشيخ عبد الله العنقري، الشيخ الضرير، الذي كان معنا آنذاك، ويحضر جلسات القراءة بانتظام.

وكيفما كانت ملاحظة المرء، فإن الوجبة الوحيدة المنتظمة في اليوم كانت العشاء في قصر البديعة في وقت متأخر من العصر. وفي الصباح الباكر يقدم إفطار خفيف من الخبز، والعسل، والتمر واللبن الرائب، وبعد صلاة الظهر يقدم التمر واللبن الرائب أيضاً. ويمكن للمرء أن يطلب أرزاً، ولحماً أيضاً، وإن كان ذلك مما يقدم للموظفين والخدم. وفي المساء، قبيل النوم يشرب كل واحد منا طاسة كبيرة من حليب الناقة. وبصفة عامة فإن نظام الأكل كان مناسباً تماماً لفصل الصيف.

في السابع والعشرين من أغسطس جاء الملك مندفعاً في غرفتي، يتبعه يوسف وخالد، قبل أن أتمكن من أخذ حمام الصباح. سمعت صوته ينادي من بعيد في الممر: "أين فيلبي؟. فيلبي! أين أنت؟". وقبل أن أجد أي وقت لأضع كوفيتي على رأسي كان قد وصل الباب شاهراً برقية كانت قد وصلت لتوها باللاسلكي من الطائف. " اقرأ هذه! "هكذا قال لي، فقرأت خبر استقالة حكومة العمال الثانية، والنية بتشكيل حكومة ائتلافية لتعالج الأزمة المالية والاقتصادية هناك. وكنا في اليوم السابق نناقش الموضوع نفسه في

البديعة، ولم أكن قد قرأت أية صحيفة بعد الثالث والعشرين من يوليو، وهي آخر ما كان قد وصل قبل مغادرتنا مكة - وكنت قد وضحت رأيي بأن مثل هذا التطور مستبعد جداً. والآن، وفي خلال أقل من اثنتي عشرة ساعة، جاء خبر الأمر الواقع، وكان الملك في نشوة لذلك، إذ كان كثيراً ما يعارض بشدة توجهي الاشتراكي.

ولأيام عديدة كانت الحياة الفكرية في القصر في أدنى مستواها. فقلّت مناقشة المواضيع الجادة، وكان هناك تحاشٍ نوعاً ما، متفق عليه، للمسائل الاقتصادية والسياسية، وإن كان الملك قد لخّص الوضع في أوربا يوماً بتوقعه حدوث حرب عامة قبل الخريف ! إن خبر استقالة الوزارة البريطانية، قد جعلت عجلة التخمين تدور مرة أخرى. وفي تلك الأمسية نفسها، وعلى سطح القصر الملكي صرح الملك بإسهاب لي وليوسف وخالد عن الوضع الحالي بين الدول العربية والقوى العظمى قائلاً: " لاتعتقدوا ولو للحظة واحدة أن أي جزء من العنصر العربي في أي جزء من العالم العربي له رغبة في التعامل مع فرنسا أو إيطاليّة أو أية قوة أخرى عظمى أو صغرى، فهم جميعاً بلا استثناء يريدون الاستقلال ومعه دعم بريطانيا العظمى وصداقتها. وهذا أساسي، ولكن بريطانيا العظمى لايبدو أنها تفهم الوضع. إنها الآن تجمع كل الشيوخ وغيرهم في الساحل من عدن إلى الكويت لتناقش معهم كيفية إدارة مصالحهم المشتركة تحت السيطرة البريطانية. ثم إن لديها ترتيباتها مع شرق الأردن والعراق. والآن، لماذا لا تبعث لجنة أو ممثلاً يطوف الدول العربية (لا موظفاً يعمل في هذه المناطق وإنما تبعث واحداً من لندن مباشرة يمثل الحكومة المركزية) ليقرر أي السبل أفضل لإقامة عالم عربي موحد تكون صداقة بريطانيا

هي البند الأساسي في سياسته. إني أتعهد بأن أعطي مثل هذا الممثل فكرة عن كيفية تحقيق هذا الهدف دون فرض أية تضحية بأي استقلال محلي لأي واحد من أجزاء العالم العربي. ولكن بريطانيا لايزال لها استعمارها لترعاه. فبينما هي تتحدث عن استقلال الهند تراها الآن مشغولة بلم تحالف يضم صغار المشايخ في الساحل العربي لتكوين وحدة استعمارية أخرى. وفوق ذلك، فهي تخافني - إنها لا تعلم ما قد أفعله إن صرت قوياً وعظيماً. لكني أؤكد لكم أني لن أغتصب بوصة واحدة من أرض خارج ما لدي. لا واجب علي للعرب، ولا شيء أخشاه منهم - إني راض تمام الرضى بأن أظل كما أنا عليه وأن أخدم ربي ومصالح بلدي ".

لقد كانت هذه صيحة اليأس مما حوله. لقد رجعت عقارب الساعة للوراء فعلاً خلال هاتين السنتين الماضيتين. والسبب في ذلك أن الناس قد تركت الملك ليصمد وحيداً، لا يشد عضده أي امرئ شجاع بقول كلمة الحق. بل إن يوسف نفسه، لم يقل شيئاً سوى إعادة خطبة الملك الطويلة نفسها، وخالد، لسبب لا يعلمه إلا الله، صرح بقناعته بأن كثيراً من العرب في سوريا، وغيرها، في تشوق تام لأن يصبحوا تحت حكم السعوديين لو تفسح لهم دول الانتداب الطريق وصمت أنا لفترة. ثم حاول الملك أن يجرني إلى الحديث، بأن عدم تنميته لصلات دبلوماسية وثيقة ووطيدة مع ممثلي القوى العظمى في جدة، قد أضاع الفرصة (لأي تفاهم وثيق) التي كان يعد بها رفع مستوى القنصليّات إلى مفوضيات. فهلا تحدثت معهم مرات عدة، وغير رسمية، في كل الموضوعات مثلما كنت تحدثني عندما كنت في الوضع نفسه بالنسبة لك؟ "

" ماذا ؟ أتريدني أن أقول لهم إن موظفيكم في الخليج لا أمل فيهم ؟ إن حديثي الصريح معهم في مثل هذه المسائل هو الذي جعلهم أعداءً لي.

وذلك كان لب كل المشكلات. فابن سعود لم يستطع بعد بناء علاقات شخصية ذات مودة صادقة وعدم كلفة بالأجنبي مع حكومته. لذا، فإن المرء لايستغرب أبداً إن لم يكن بتقاريرهم في العموم وتوصياتهم تحامل، وإن قل، على السعوديين. والحق يقال إن الملك السعودي يقف وحيداً في مواجهة تخطيطات القوى العالمية. وبالرغم من كل جاذبيته الشخصية، وكرمه الفياض، وسخائه الغامر، واستقامته التامة، فإنه لايلقى سوى التزلف والنفاق في الداخل لا لشيء سوى أنه كان كثيراً ما يقول الحق بسياط صراحته. إن قضية العرب الكبرى بدت وكأنها تنزلق نحو حافة أكبر هاوية - العجز النفسي والسياسي. إن هناك رجلاً واحداً فقط قادر على بذل المجهود المطلوب لإنقاذها.

إن خير صورة للعجز المنتشر في البلاد كلها آنذاك كانت الكيفية التي عولجت بها مسألة اللاسلكي. فلعدة شهور بعد وصول المهندسين والأجهزة لم يتم شيء لبناء المحطة المراد بناؤها، إذ إن كل الطاقات كانت مبذولة في انتقال للأجهزة المتحركة. وبعد حين من الزمن تمكنا من استصدار أوامر من فيصل بنقل جهازين متحركين إلى الرياض، والاثنين الآخرين إلى الطائف. وتم تنفيذ هذه الأوامر، وفي التاسع عشر من أغسطس كان الجهازان المتحركان في الرياض على اتصال بالآخرين في الطائف. لقد انفعل رجال الطائف انفعالاً شديداً بهذا الحدث التاريخي، مما حدا بهم لإرسال عدة برقيات تهنئة إلى الملك. أما في الرياض (وبالرغم من المعارضة الخفية لهذا الاختراع) فإنه بدا كأن الاتصال كان هناك منذ قرون طويلة - فلم يكن هناك صدى بهذا الحدث التاريخي. بل إن البرقية الصحفية التي أعددتها لترسل إلى الديلي هيرالد،

معلناً فيها إمكانية اتصال العاصمة السعودية ببقية العالم ظلت حبيسة وقتاً طويلاً جعل إرسالها بعد ذلك شيئاً لا معنى له. ثم أن النقل بالسيارات (للبريد وغيره) بطيء جداً. ولكن إن دخلت ذرة من الرمال في «الكاربوريتر»، أو حدث أي عطل بسيط ما مما يمكن أن يحدث لأية آلة من أي نوع، أعلن يوسف أن الجهاز لم يعد صالحاً للعمل. ولم يكن مجدياً الإيضاح بأن الجهازين في الواقع في حالة ممتازة في وقت الكلام نفسه. لذا فقد صار وضعي حتماً أصعب فأصعب. ولم يكن أمامي شيء سوى الصمود ليقيني الراسخ بأن الزمن وحده كفيل بمعالجة كل المشكلات المؤقتة، وإن كانت هذه المشكلة المتعلقة باللاسلكي، قد جعلت من المستبعد جداً أن أستعيد مكانتي الاستشارية عند الملك السابقة للحج. لذا، فإني -بلا أعباء رسمية لي- كنت عضواً غير رسمي في المجلس الملكي الخاص.

وهكذا كانت الحياة خلال تلك الأيام. وتمكنت ذات يوم من تخصيص صباح يوم لاصطياد الفراشات في بستان العطنة بين حي القري الجديد (كان بستان نخيل في زيارة ١٩١٧م - ١٩١٨م) وبستان الوسيطى، الذي كان قد تقرر قطع نخيله لتحويل الأرض لمنطقة سكنية. وقدر لبستان العطنة أن يكون مكاناً لمحطة اللاسلكي الجديدة ومستودعها. لقد كنت مستغرباً جداً لندرة الحشرات في الضوء بالليل على سطح القصر. ولكن في الفصْفصَة[1] في بستان العطنة كانت الفراشات في أعداد كثيرة - معظمها زرقاء (من نوعين أو ثلاثة) وفصيلة بيضاء - والجندب كذلك. لقد استمتعت بصباحي ذلك بينها، وجمعت منها نحواً من سبعين فراشة وثلاثين أو أكثر من الجندب. وفي عصر ذلك اليوم (السادس والعشرين من أغسطس)، حدث تغير في النظام اليومي

(١) الفصفصة: نبات عشبي جمعه فصافص يعطى للدواب. (المراجعون).

بدعوة كانت وجهت للملك للغداء في أحد البساتين خارج السور الغربي للمدينة. وكنا مدعوين أيضاً، وذهبنا إلى هناك، أنا ويوسف وخالد، مشياً في حر الظهيرة. لقد كانت تغييراً جميلاً لنا أن نجلس في حديقة بدلاً من القصر في البديعة. وكان الغداء وليمة كالعادة، عدنا بعدها لحديقة العطنة ليرى الملك الموقع الذي ستكون فيه محطة اللاسلكي. وهناك صلينا المغرب، وأكلنا من تمر الوسيطى، وأمر الملك ببناء الحيطان والدعائم.

إن نمط الحياة الذي وصفته سابقاً يتغير تغييراً جذريّاً أيام الجمع. فمن نحو الثامنة إلى التاسعة صباحاً يجلس الملك جلسة خاصة، ثم يعود لمقره ليستعد لصلاة الجمعة، في نحو الساعة الحادية عشرة والنصف إلى الحادية عشرة والدقيقة الأربعين في هذا الموسم. لقد تجاوز عدد سكان الرياض طاقة المسجد الجامع، أو المسجد الرئيس، مما اقتضى أن يكون هناك مسجدان آخران للجمعة. إن أرضية المسجد الجامع، قبالة القصر، مغطاة بحصى صغير مثلها مثل أرضيات المساجد الأخرى في الرياض. لكن الملك يؤدي صلاة الجماعة في مصلاه الخاص، وهو غرفة ضيقة وطويلة مبنية فوق سطح المسجد، تمتد من ركنه الجنوبي إلى نحو نصف حائطه الجنوبي الغربي، يصلها بالبناء الرئيس للقصر (بطرفه الغربي) ممر مسقوف، قائم على أعمدة. وهنا نجتمع أنا ويوسف وخالد مع أتباع الملك في وقت مبكر كالساعة العاشرة أو العاشرة والربع صباحاً. وبعد ركعتي السنة يجلس المرء يقرأ القرآن. وبعد حين من الزمن، يدخل الملك، مع بعض أفراد أسرته (وعادة ما يكون منصور بينهم)، ويجلس أمام المحراب، وهو امتداد علوي للمحراب الرئيس للمسجد، وجهته إلى الجنوب الغربي على أن الاتجاه الصحيح للقبلة غرب الجنوب الغربي (٢٤٥ درجة) - وهي حقيقة. وبعد

انتهاء الملك من ركعتي السنة ينضم إلى جماعة التلاوة، وتستمر قراءة القرآن حتى يجيء الصوت الأول للمؤذن، فيعم المكان، العلوي والسفلي، صمت فجائي. عند ذلك يعلن صوت المؤذن الحاد النداء للصلاة. وما أن ينتهي حتى يملأ صوت الخطيب العالي الرخيم المكان بالخطبة، والمواعظ، ثم يختمها بالدعاء. وعندئذ تقام الصلاة بصوت جهوري قوي في نغمة الكلام العادي. وبعد ذلك تؤدى صلاة الجمعة. بعدها نصلي ركعتي السنة، ونجلس حتى ينتهي الملك من أدعيته الطويلة. وبعد الصلاة يجلس الملك برهة من الزمان لاستقبال عامة الناس. وبعد ذلك يحق للناس أن تنصرف، لتناول طعام الغداء أو تنام أو تقضي فترة الظهيرة حسبما ترى.

وفي أيام الجمع يقوم الملك بزيارة المقبرة الكبيرة عادة، وهي واحدة من عدة مقابر تلاصق العاصمة، وتعود لعهد فيصل، الذي ربما كان أول من دفن فيها من أفراد الأسرة الملكية، بينما دفن أبوه تركي في المقبرة القديمة خارج السور الشمالي وبوابة الظهيرة. وتحتل المقبرة الجديدة مساحة كبيرة من الضفة اليسرى من البطحاء وليس لها باب أو سور، وكنت قد رافقت الملك في إحدى هذه الزيارات في الجمعة الثانية بعد وصولي. فحين وصلنا بالسيارة إلى المقبرة، تركنا أحذيتنا في طرف منطقة القبور وتجولنا حفاة وهو شيء مؤلم أحياناً. وكان الإمام الرسمي، الشيخ محمد بن حمد بن فارس، يرشد الملك، ويسمي له أصحاب القبور التي ينبغي زيارتها. وبهذه المناسبة فإن الرسول قد سمح بزيارة القبور كوسيلة لتذكير الأحياء بالموت -المصير الحتمي-، وإن كانت عقيدة السلفيين وممارستهم لا يسمحان بتقديس تراب الموتى[1]. ومن بين

(١) منهج السلف هو الالتزام بسنة الرسول ﷺ التي تنهى عن البدع، ومنها التبرك بالقبور والتوسل إليها، فجاءت الدعوة السلفية لتحيي السنة المطهرة. (المراجعون).

أولئك الذين حظوا بشرف الزيارة كان مشايخ الرياض، أحفاد الإمام الكبير محمد بن عبد الوهاب وتلاميذهم. لقد رأيت لقبور هؤلاء المشايخ تأثيراً عاطفياً واضحاً على الملك حيث كان يدعو لهؤلاء الشيوخ بالجنة، جزاءً لما عملوه في هذه الدنيا. ومن القبور الأخرى كانت قبور أمه، ابنه فهد (توفي ١٩١٩م)، ابنه الأكبر وولي عهده لبعض الوقت تركي (توفي ١٩١٩م) بجوار الجميلة الجوهرة (توفيت ١٩١٩م)، التي كانت يوماً ما ملكة كل هذا العالم الصحراوي. وهناك أيضاً أبوه عبد الرحمن، في قبر معتنى به نسبياً - ليس لأي قبر شاهد أو أية زينة أخرى، وإن كان بعضها تحيط به الحجارة وغيرها من الأشياء بحالة أحسن من غيره - وغير بعيد فيصل نفسه مع ابنه الأكبر وخليفته عبد الله بجواره. ومن النساء المدفونات أيضا أم فيصل، نائب الملك في الحجاز، وهلم جرا، حتى عدنا مرة أخرى للسيارات، وسرنا بها إلى بعض التلال قرب غار جبل أبو مخروق لتمضية الوقت حتى المغيب حين صلينا وشربنا القهوة في البيت الصيفي لسعود العرافة في الشميسي. إن سعود بن فيصل، وفيصل بن عبد الرحمن، وعدداً من أعضاء الأسرة الملكية يرقدون في المقبرة القديمة حول تركي، قريباً من الموقع الأصلي لبداية سكنى الرياض، ولبئر حجر اليمامة وبستانه.

وبعد يوم أو يومين صادفت رجلاً في رحلته الأخيرة للمقبرة، وذلك حين كنت ألف في الحي السكني الجديد بالقري، في طريقي إلى العيادة الصحية الصغيرة التي كانت قد بدأت هنا في ١٩٢٩م، والتي أثبتت أهميتها بما يفوق الوصف، إذا قاس المرء الأمور من سجل الزائرين. وكنت قد اتفقت مع الدكتور أحمد ياسين وصيدليه، الدكتور نديم، على زيارتهما في موقع عملهما، فوجدتهما في قمة الانشغال فعلاً. لقد كان أحد أفراد حاشية الملك هو المريض الذي يفحص آنذاك،

فسلمت عليه وصافحته باليد واكتشفت بعد جلوسي على كرسي الشرف الذي كان قد أخلاه أنه يعاني من مرض معد كان قد أصابه قبل عشر سنوات في الكويت، وتلقى علاجه هنا وفي مكة، وإن كانت هذه هي زيارته الأولى لمستشفى الرياض فقد انصرف على أن يعود مرة أخرى لأخذ حقنة علاجية ثانية بعد أسبوع، وفي تلك السنة -من الخامس عشر من ديسمبر إلى الخامس عشر من يوليو تقريباً، أو في مدة سبعة أسابيع- بلغ عدد المرضى ٩٧٨٠ شخصاً بمعدل ١٤٠٠ مريض في الشهر، وأقل من الخمسين تقريباً في اليوم، ولكن في ربيع الأول ارتفع العدد ارتفاعاً مزعجاً لموجة عامة من الدنجو[1]، فبلغ العدد في الفترة من السادس عشر من يوليو إلى نهاية أغسطس نحو ٣٣٢٠ تقريباً. بمعدل نحو سبعين مريضاً في اليوم. أما مرض الزهري، فإني تحصلت على الإحصاءات لثلاثة شهور، تظهر ١٩٣ مريضاً به من كل ٣٨٤٠ مريضاً أي بنسبة خمسة في المئة من المجموع العام. أما السل الرئوي والجدري (بموجات من وباء الدنجو من حين لآخر) فإنهما كانا بلاءً على البلاد، بينما أعطت أمراض العيون، مختلفة الأنواع، للطبيب كل المجالات الطبية التي تأهل لها. ولم يكن عندهما نقص في الأدوية أو المؤن، ولكن الوقت لم يكن قد حان بعد لمستشفى كامل في الرياض. وذلك لحسرة الدكتور أحمد ياسين الذي أوشكت سنوات عقده الثالث على الانتهاء، ولأسباب لا ضرورة لذكرها، لا يرغب قضاء بقية حياته في الرياض.

ويوماً بعد يوم كانت تمضي رتابة حياة عصر كل يوم في قصر البديعة، وكنت قد بدأت أشعر بشيء من الضيق منها. إلى أن لاحت بعض التغييرات. ففي عصر أحد الأيام مثلاً كان الملك قد قبل دعوة غداء في أحد البساتين الغربية بالرياض. وفي مرة أخرى، في العصر بعد الغداء قام بنزهة في البساتين المجاورة

(١) يسمى أبو الركب. (المترجم).

المعروفة باسم المحطة، التي يقال إنها كانت موقع الاستحكامات التي كان قد أقامها السعوديون في الدرعية، في القرن الثامن عشر، لصد هجوم القوات النجرانية بقيادة حسن بن هبة الله، التي هزمت شر هزيمة في آخر الأمر في مذبحة عظيمة في الحائر، الذي سمي بهذا الاسم لتبخر برك الدماء التي كانت في منخفضه[1]. وكانت في هذا البستان شجرة تين ضخمة، يبدو أنها كانت قديمة، لم تثمر تيناً جيداً ذلك الموسم، وإن كان الملك يتذكر أنه قبل سنة أو سنتين كان قد رأى فيها تيناً ضخم الحجم يتقطر عصارة حلوة. وكانت بعض أشجار النخيل (العمر الأقصى للواحدة ١٥٠ عاماً) قد اجتثتها السيول هنا وهناك فحلت محلها أخرى أصغر منها. لكن البستان كان أقرب للغابة منه لأي شيء آخر، فأشجار الفاكهة - الخوخ، والتفاح، والعنب - متزاحمة في تشابك وغير مقلمة. وفي يوم آخر، وبعد الغداء، ذهب الملك في جماعة إلى بستان في أعلى الوادي، على ضفته اليسرى، لابن مطرف، أحد حاشيته. لقد كان منظره رائعاً، بجذوع النخيل الباسقة خارجة من حقل الذرة، مقطوعة الرءوس، التي تزرع وتقطع لتكون علفاً. وابن مطرف، وهو رجل مسن الآن، كان حامل راية الملك، فكان جلالته يقول له: "ياعم"، بأدب شديد. فكم من معركة كان يحمل فيها راية سيده، وكم من جرح عليه يشهد على معاناته. أما ابنه، وهو شاب رشيق حسن البنية ووسيم، فقد كان في السنوات الأربع أو الخمس الأخيرة تعلق بقيادة السيارات. وهو الآن في خدمة الملك، كأحد السائقين الملكيين.

وفي الباطن، وعلى جانبيه ابتداءً من البديعة، تنتشر بساتين النخيل لبضع كيلومترات في التربة الطينية التي ترسبها السيول الموسمية. فقد قيل إن السيول

(١) ليس صحيحاً ما ذهب إليه المؤلف أن تسمية الحاير جاءت من تلك الحادثة بل إن اسمه قديم ويعرف به إلى الآن. (المراجعون).

في ذلك العام جاءت ما لايقل عن أربع وعشرين مرة، مستمرة في واحدة أو اثنتين منها ليومين بلا انقطاع. وفي بعض الأماكن كست جانبي المجرى جلاميد من الصخور الجيرية من التلال، كما أن بطنه من الرمال والحصى - وهو بكل ما فيه وادٍ رائع، غطته آنذاك خيام البدو.

وليس في البساتين كلها ما يفوق بستان البديعة، الذي كانت تغرس فيه أشجار النخيل حين زرته قبل أربع عشرة سنة. ويبدو أنه كان ملك الأمير سعود، الذي ذكر أن له ١٢٠٠ نخلة، كلها في كمال خصوبتها. وفي الطرف الأقصى من البستان من جهة النخيل بئر كان سعود قد نصب ماكينتي بتر بقوة ثمانية أحصنة، تعمل بمضخات جنزير من نوع أكواتول بدلاً من الحمير والجمال التي كانت تروح وتجيء في المجر المهجور. فباستهلاك تنكة من الكيروسين كل ثماني ساعات، فإن الماكينتين تعملان معاً لأربع وعشرين ساعة في اليوم في شهور الصيف الحارة حين يكون النخيل في أشد حالات الظمأ. ولقد عزل جزء عن القسم الرئيس للبستان ليكون حديقة للفاكهة، زرعت فيها أشجار الخوخ وغيرها، وإن كان موسم الفاكهة لم يكن جيداً ذلك العام. وفي يوم من الأيام، بعد صلاة العشاء، حيث كان من عادة الملك أكل التمر وهو في حالة اللون - يأكل واحدة أو اثنين بعد غسلهما قليلاً بشيء من ماء الباطن العذب - قدم للملك الجمّار، أو قلب جذع النخلة، الذي يعني قطعه قتل النخلة - لذلك فإنه طعام رفاهية بالغة، به شيء من هشاشة الكرفس، وطعم لطيف بحلاوة يتعذر وصفها.

وكان باب البستان مغلقاً دائماً، لأنه كان منتزهاً لسيدات القصر وخادماتهن، اللائي كنا نراهن يزغن في الخضرة هرباً من حضور الرجال، حين كنا ندخل البستان بلا سابق إنذار، كعادتنا دائماً. ولقد كان النبات كثيفاً بالقدر الذي يخفيهن تماماً. وقد حدث في واحدة أو اثنتين من المناسبات حين نظم ابن

سعود لعبة إلى حد ما تشابه اللمس - يقوم فيها عبد شبه معصوب العينين بمطاردة الآخرين بلا تمييز بينهم، بيده عصا من جريد النخل يضرب بها بشدة يمنة ويسرة على كل من تقع عليه يده - أن قمت أنا، والآخرون بلا شك، بالوقوف صدفة على تلك الجماعات من الجواري المحجبات، وتجفيلهن. لقد كنت أستغرب كثيراً من عدم استخدام الملك هذا البستان الجميل أكثر مما يفعل لجلساته العادية في العصر. ولكنه كان قد ركن إلى الحياة الداخلية، الشيء الذي لم يكن يفضله لصحته قطعاً. وفي مناسبة أخرى كان الملك مدعواً للغداء، عصراً متأخراً كالعادة، لدى بعض أسرة السديري، ذات النسب العريق ببيت آل سعود عن طريق التزاوج بين الأسرتين. فقد كانت إحدى زوجات الملك آنذاك ابنة أكبر السديريين، أحمد، وهو رجل مسن لطيف المعشر، كان ولسنوات طويلة من أكبر المؤيدين المخلصين للملك. وكانت سيارة (أو اثنتان) قد أرسلت إليه في مقره في الغاط في منطقة سدير (التي منها اسم العائلة) لإحضار الشيخ الكبير لزيارة ابنته في الرياض ؛ وكان الاحتفال بهذه الزيارة سبباً في رحلة الغداء التي نظمتها أسرة السديري في بستان نخلها في المصانع، الواحة في ضاحية الرياض. لقد كانت حديقة رائعة حقّاً، بعريشات العنب، وأشجار الخوخ متزاحمة في ظل أشجار النخيل الباسقة، الخارجة من خليط غير منظم من الحشائش والأعشاب، التي مدت فوقها المائدة الشهية على قطعة كبيرة من القماش الأبيض. وكان الشيخ الكبير قد جاء باثنين من أصغر أبنائه معه -وهما في عمر ابني الملك من السديريين فهد وسلطان- وجاء أيضاً ابن السديري عبد الله وابن أخيه محمد الذي أصبحت زوجته المطلقة، زوجة الملك وأم فهد. إنها تبدو حالة معقدة نوعاً ما، لكن المسائل الزوجية للعائلة السعودية متداخلة إلى حد كبير.

وكان من بين حضور هذه المناسبة الشيخ عبد الله بن حسن المشهور، الذي يبدو أقل تشدداً من المشايخ الآخرين، وإن كان من أقوى المدافعين عن العقيدة. وفي طريقنا من الباطن إلى المصانع، وقريباً من منزل محمد بعتيقة، مررنا ببستان الشيخ عبداللطيف[1] (ذكره بالجريف، الذي جعله شمال شرق الرياض بدلاً من جنوبها أو جنوب شرقيها!). وهناك انطلق الملك يثني بانفعال شديد على ابن زارعها الفعلي، عبدالله، أعظم كل المشايخ الحاليين، الحكيم في مشورته السياسية بقدر تفقهه في الدين. لقد كان هو فعلاً اليد اليمنى للحاكم الشاب طيلة تلك السنوات الأولى في طريقه إلى المجد. وكان الملك يعترف بذلك لا بالشكر فحسب، بل بحماسة وهو يمر بالبستان، الذي كان يبدد فيه الشيخ حر النهار، مما جعل حكمه صائباً، ومشورته حكيمة. وظل هذا الشريط من الأفكار في البال الملكي طيلة العصر. وتكلم جلالته باستفاضة عن تعاليم الإسلام. ومهما تكن خطايا المرء، الخلقية وغيرها، فإن المرء يظل مسلماً حقّاً، ويرجو رحمة الله في الحياة الآخرة. ولكن شيئين بلا شك يخرجان المرء من الإسلام - الشرك بالله في العبادة والمجاهرة بالمعصية[2]. ولقد قال أحد مشايخ نجد، حين واجهه في مصر ما لايوافق عقيدته السلفية، وسئل عن رأيه فيما رآه؛ إن كنت أفعل ما تفعلونه فإني سأعد نفسي كافراً. ولكني لا أقول إنكم كفار، لأنكم تفعلون ما تفعلونه عن جهل، بينما أكون أنا قد فعلته عالماً بأنه خطأ.

والمصانع منطقة نخيل واسعة في أقصى الطرف الجنوبي من بلد الرياض

(١) مكان هذا البستان أو المزرعة هي الزاوية الجنوبية الشرقية لصياح، جنوبي مدينة الرياض. (المراجعون).

(٢) معتقد أهل السنة والجماعة أن الشرك بالله يخرج المرء من الإسلام. أما ارتكاب المعاصي، فإن كانت المعصية مما يكفر بها صاحبها كسَبِّ الله عز وجل فإنها تخرج المرء من الإسلام سواء جاهر بها أم لا، أما إذا كانت من المعاصي التي لا يكفر صاحبها كعقوق الوالدين فهذه لا تخرج من الإسلام سواء جاهر بها أم لم يجاهر لكنه آثم على كل حال. (المراجعون).

يفصلها مجرى السيل الرملي لوادي حنيفة من شريط الحدائق الواسع في منفوحة إلى الشمال. وفي هذا المكان يعترض الوادي سد قوي من الحجارة، تقويه ما يشبه الدعامات في مسافات متفرقة منه ليحول السيل إلى بساتين النخيل في المصانع ومنفوحة. وفي الأخيرة هذه كان الملك قد اشترى مؤخراً بستاناً بمبلغ ٢١,٠٠٠ ريال - وكان ريال ماريا تريزا آنذاك يزيد قليلاً على تسعة عشر جنيهاً إسترلينياً - ليكون ملكاً لمنصور وأمه. وبدت لي قرية المصانع، التي لم تكن كبيرة أبداً، كأنها صغرت في حجمها، بينما بدت منفوحة كأنها تلفظ آخر أنفاسها - تلك البقية الباقية المحزنة من مدينة كانت عظيمة يوماً ما بالمقاييس العربية، لم تزل حيطانها الشاحبة منتشرة في مساحة شاسعة في خطوط متقطعة. لقد بدت مهجورة أو كادت تكون، وتفسير ذلك غريب بقدر ما هو يسير. ففي الأيام الغابرة كان الناس يضطرون للتجمع في المدن والقرى لحماية بعضهم البعض من قلة الأمن الشائعة، ويبنون الأسوار ويصونونها باستمرار. أما سلم هذه الأيام فقد أدى إلى هجرة عامة إلى بساتين النخيل مما نتج عنه تفكك مجتمعات القرية، التي قنعت بالرياض مركزاً رئيساً للتسوق تزوره حسب الحاجة. أما بالنسبة للبقية، فقد قنعت كل أسرة بأن تنغلق على نفسها في استقلالها الزراعي. فالغذاء والماء كانا الحد الأدنى للبقاء. وعدا ذلك فإن الذكر يبحث له عن أنثى تسعده وتحمل نسله - وهو نوع من العيش القاسي لا عزاء فيه سوى بصيص الضوء الواقع على الأرواح الميتة لأولئك الناس، الآتي من المنارة النائية للدين الحق[1]. وفي هذا الوقت لم يفتأ عقلي يعود لعجز حكومة ابن سعود عن السيطرة على أزمتها الاقتصادية، ونتيجتها الحتمية

(١) هذه هي الحياة التي قسمها الله لأهل المنطقة عموماً وقد رضوا بها أملاً في الله بأن يوسع عليهم الرزق، وهو ما حصل في أواخر عهد الملك عبدالعزيز وحتى الوقت الحاضر، حيث تغيرت حياتهم ونظرتهم للدنيا مع بقاء تمسكهم بدينهم وقيمهم الاجتماعية. (المراجعون).

لكساد التجارة والعمل التجاري في الأرض. وكانت البقعة الوحيدة المضيئة، وبكل حق، الإصرار الرائع للملك على التقشف في الصرف حتى العظم (وربما كان هو إصرار حكومة الحجاز أيضاً، وإن ظل اقتصادها الرئيس في هبوط مستمر أعجزه عن دفع الديون المستحقة، وبالتالي أعجزه عن شراء السلع بالدين كالسابق). وكانت شواهد الاقتصاد في الرياض أوضح من أن تخفى على العين. بل إن الضيافة الملكية نفسها كانت تعاني أيام العسرة، والوجبات التي كانت تقدم لم تبلغ المستوى العالي المألوف.

إن أي دليل على الاقتصاد كان مقبولاً. ولقد كان شيئاً متعلقاً بهذا الموضوع ذات أمسية (الثاني عشر من سبتمبر ١٩٣١م)، بعد صلاة العشاء، حين كنا مجتمعين مع الملك فوق سطحه الخاص وهو يصرف أمر البريد الصادر للأحساء حين سعدت بسماعه وهو يملي رسالة طويلة رائعة في أسلوبها كروعتها في محتواها إلى عبدالله بن جلوي، رداً على شكوى مطولة من الإجراءات الاقتصادية والتدخل العام من لجنة الدخل بالأحساء التي عينت مؤخراً، المكونة من الشيخ محمد الطويل وإبراهيم بن معمر. وفي واقع الأمر قال الملك، إن الأحساء تدار باقتصاد مدهش، بحيث لم تتجاوز جملة الصرف الشهري ١٥٠٠٠ من ريالات ماريا تريزا، لكن النظام كان ضرورياً.

ولقد أثبت ابن سعود في تمليته هذا الجزء من الخطاب أنه متمكن من موضوعه وحاكم بالفطرة أيضاً. وترك لعبد الله بن جلوي تحديد المبلغ الشهري الضروري له ولعائلته، وأن تدفعه له الخزانة، ولا يكون محل مراجعة أو أي تفتيش آخر. أما نفقة الضيافة، فإنها من الآن فصاعداً تتولاها الخزانة، وعلى الحاكم فقط أن يتأكد من أن الطعام المقدم في المستوى اللائق. ويتلقى الزوار من

البدو من التمر، والأرز، والسمن (سماه الدهن)، والبن ما يكفي خمسة أشخاص، سواءٌ أكان الوفد مكوناً من خمسة أم مئة أم ألف. واللحم يجب أن يقدم حسب النظام المعروف حالياً - لاشيء للناس غير المهمين، خروف لجماعة كبيرة وذات أهمية بالقدر الكافي، وجمل لجماعة كبيرة في صحبة زائر مهم. ومن الناحية الأخرى، فإن ضيافة غير البدو تديرها مصلحة المالية كذلك، وتكون في بيتين للضيافة، أحدهما للضيوف من الدرجة العالية، والثاني للخدم وغير المهمين من الناس. وفي كل الأحوال يحدد حق الضيافة بالأيام الثلاثة التقليدية إلا في حالة أولئك الذين لديهم أعمال مهمة، قال الملك مستمراً في إملائه: "مثلاً، في ذلك اليوم كلفت ضيافة فلان (مسمياً شيخاً من البدو) ٢٠٠٠ ريال، بينما كانت ١٥٠ إلى ٢٠٠ ريال ستناسب مكانته تماماً وبكل تأكيد". وهكذا بمهارة ولكن بأدنى قدر من الاضطراب، أزال ذلك الخلط المضطرب بين الصرفين الخاص والعام، الذي هو سمة الإدارة الشرقية، ليفتح الطريق للإصلاح في المستقبل دون أن يجرح شعور واحد من المدرسة القديمة، مخلص قلباً وقالباً، كان قد قام بخدمات تحت الظروف القديمة، ولم ترق له الأساليب الجديدة للإدارة، حديثة الناب. لكن الملك دعاه بألاّ يعمل شيئاً لم يسبق العمل به بالرياض للمصلحة العامة للدولة. فابن سعود، وكما هو جلي واضح، صاحب صنعة حين يعالج الشؤون الداخلية للجزيرة العربية وشعبها الذين كانوا موضوع تجربته كل حياته. ولكنه يخيب الظن حين يترك أرضه الحقيقية للأرضية المالية والاقتصاد الغريبة عنه. وحدث تنويع في رتابة حياة البديعة في عصر يومين متتاليين، حين قام خادمان من القصر بنوع من تهريج الهواة أضحك الجميع.